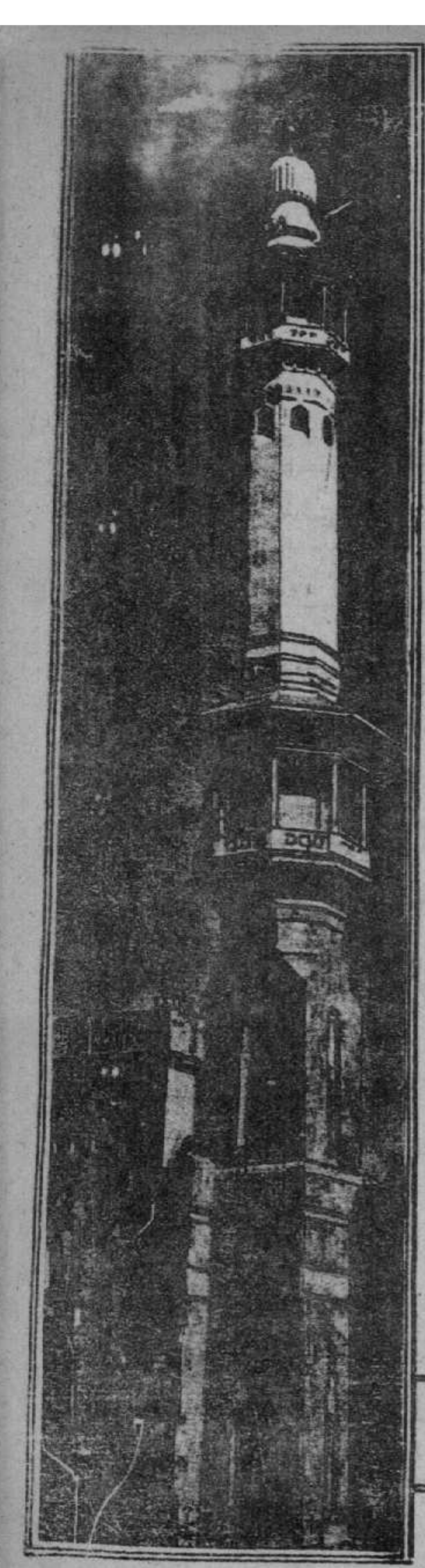
دراسات فلسفية
وعقدية



قيمة الصراع بين الفلسفة الاسلامية وعلم الكلام

المؤلف
محمد حسيني موسى محمد الغزالي

الجزء الأول

الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م



المؤلف في سطور :

الاســـم : محمد حسيني موسى محمد

شهرته " محمد الغزالى "

محل الميلاد: غزالة الخيس . أحدى قرى مركز الزقازيق

محافظة الشرقية واليها نسب فقيل " الغزالى "

أعمال المؤلف المعدة للطبع :

أولا : الأعمال العلميــة :

١ ـ رفع عيسى عليه السلام ونزوله فى المسيحية وموقف الاسلام منهما ـ جزءان ـ

٢ ـ قيمة الصراع بين الفلسفة وعلم الكلام ـ جزءان ـ

٣ ـ لماذا انتشر الاسلام ؟ ـ جزءان ـ

٤ ـ لماذا ينكمش أبناء الاسلام ؟ ـ جزء واحد ـ

٥ ـ ومضات من حياة المسيح والنصرانية ـ جزءان ـ

٦ ـ الغزاليات فى السمعيات ـ جزء واحد ـ

ثانيا : الأعمال الأدبيـــة :

أ ـ الروايــة :

١ ـ سالمـــة

٢ ـ المعلّم قرنـــى

٣ ـ المتسلـــط

٤ ـ أقسمت أن أروى

ب ـ الشعر العربى الموزون :

١ ـ ظـلال من الفكـر

٢ ـ التائـه الغريـب

جـ ـ المسرح :

١ ـ وهذا مذهبي .
٢ ـ ثورة الضمير .
٣ ـ المدرس الكشكول .

= ============ =

ثالثا : أعمال تحت التنفيذ :

١ ـ الشيخ / محمود أبو هاشم الصوفي الشاعر .
٢ ـ الشيخ / محمد يوسف موسى وجهوده التوفيقية .
٣ ـ الدكتور / محمود قاسم مفكرا .
٤ ـ الدكتور / محمد البهي وأثره الفكري .
٥ ـ الشيخ / محمد رشيد رضا الفيلسوف المفكر .

. . . .
. . . .
. . . . . .
. . .
. .
.

شكـــر وتنويـــــه

من الواجب العرفان بالجميل لكل من ساهم في هذا المؤلـف ســواء بالخبرة ، أو المناقشة وخاصة فضيلة رجل العلم والتقى الشيخ / عبد الحكيم محمد حسنين – المدرس المساعد للحديث الشريف بكلية أصول الديـــن والدعوة بالزقازيق – فقد تفضل مشكورا بتخريج الأحاديث التي خرجـــت في هذا الكتـــاب . وكان تخريجـه بفضـل الله نعمـة كـبرى على الباحث والبحث . فشكرا لما قام به من مجهـــود في خدمـة السنة النبويـــــة المطهـــرة ، وبارك الله له في علمه وعافيته ودينـــه .

= ═══════ =

إهـــداء

إلـــى

والديّ الكـــريمين . بارك الله فيهما

إلـــى

زوجي النبيلة . وابنيّ الحـــبيبيـــن

حازم وبدر الديـــن

راجيـــاً لهـــم من الله التوفيق وبلوغ المراد .

إستفتاح

قال تعالى :

" يؤتي الحكمة من يشاء . ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب " .

صدق الله العظيم .

(سورة البقرة الآية ٢٦٩)

الباب الأول

علم الكلام

" بسم الله الرحمن الرحيم "

المقدمة

الحمد لله وهب المكلفين الأفئدة ، وزكى الناشئين عليها ، وخاطبهم بألبابهم ، وجعلها موطن التأمل وملاذ الموعظة . فقال تعالى « إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ » فارتاحت لمنهجه جوانحهم القلقة ، واطمأنت برحابه نفوسهم المفزعة . فعنت وجوههم له . وخضعت جباههم لعظمته . فعرفوا الحق بالحق وأيقنوا أن وجود الخلق من الخالق . وتقسيم الرزق وإغداقه من الرازق . والأجل من الواهب . ألا وهو المولى الكريم . اللطيف الخبير رب العالمين .

والصلاة والسلام على خير رسل الله سيدنا محمد بن عبد الله ، خاتم الأنبياء . والدرة الذاكية بين رسله وأوليائه . وغرتهم الزاهية بين هداة الخلق الى الحق . الذي أنزل الله عليه الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين " صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين الغر الميامين وأتباعه الهداة المهتدين صلاة وسلاما دائمين متلازمين الى يوم الدين .

أما بعد ..

فان مشاعر العداء والكراهية للاسلام . ماتزال تظهر حينا بعد حين . وكلما برزت الى ساحة الضوء انكشف زيفها ، وبان كذبها . فتخبو طاوية على سهل الخلاف . ضامرة على أبشع صنوف الدمار والاتلاف . قانعة بأن الخفاء أيسر من الفناء ، وأن مواجهة براهين الاسلام بشبهات المخالفين . صراع في غير معركة . وقتال بغير سلاح .

ويظل دعاة العداء وأنصاره ، يعملون على بث الاختلاف حوله ، ومحاولات الاضعاف من شأنه والتقليل من هيبته ، وذلك ببعث شبه ميتة ، أو ابتعاث أوهام جديدة ، أو ابراز وجوه خلاف فيه أو اختلاف حوله ، مما يرومون من خلفه للاسلام الضعف ، وللمسلمين الذلة والهوان . والغريب أنهم لا يكلون قوى ولا يحرمون سعيا . ولا يعدمون أنصارا . فكلما وهنت منهم عزيمة جددوها . وكلما تخلت عنهم قوة الى حظيرتهم أعادوها . وكلما انخلعت من ربقتهم فرقة تنادوا بليل عليها ، فاما أن تعود أو يصرعوها . فهم لا تغريهم الأعداد المتزايدة فى صفوفهم . بقدر ما تلهبهم سياط انتصار الاسلام بجنده القلائل . ويظل الصراع العنيف يطل حينا ، وحينا تخبو ناره ولكنها لا تبيد. وهم يتخذون من العلوم الاسلامية والعلماء . مصدرا أساسيا لأوهامهم والظنون . وعلم الكلام فى الاسلام ، وكذلك الفلسفة الاسلامية ، من العلوم التى استخدم الأعداء فيهما كل سلاح ، وجربوا فيهما كل الجنود ، وأنزلوا بساحتيهما بعض العيون ، لترقب لهم ترتيب الصفوف ، ونوعية السلاح ، وقوة الحجة من ضعفها ، وعملا جاؤا ببعض النتائج التى تمثل سلبيات الفكر فى العقيدة الاسلامية من وجهة نظرهم كخصوم .

وشاءت ارادة الله تعالى ، أن أقع على بعضها ، فألفيتها ظنونا لا تمثل الا الشك والأوهام . ولا تدل الا على الرعونة وعدم الانسجام ، من هنا قررت القيام بهذا العبء الذى يتلخص فيما يلى :

أولا : التدليل على أن علم الكلام فى الاسلام . اسلامى فى :

أ ـ تعريفه .
ب ـ موضوعه .
جـ ـ منهجه .
د ـ غايته :

هـ — رجاله والقائمين فيه من المسلمين المخلصين .

٢ — الاستدلال على أصالته فى البيئة الاسلامية .

٣ — قدرته على تلخيص المشكلات الأساسية ، وبلورتها ، واعادة النظر فيها بصورة اسلامية تؤكد قدرة علم الكلام على التصدى لها ، وايجاد الحلول الكافية لكل ما يتعرض لها أو تعرض عليه .

٤ — اثبات أن علم الكلام فى الاسلام يوصل الى معرفة الله تعالى ، بكل صفاته وما يناسب ذاته تعالى من صفات الجلال والكمال . وكذلك النبوات والسمعيات باثباتها وضرورة الايمان بها .

ثانيا : التأكيد على أن فى الاسلام فلسفة اسلامية خاصة به ، تحوطها أسس تليدة ، وتقوم عليها معارف اسلامية أكيدة ، ترنو الى البرهنة على أن العقل المسلم ربيب دين الاسلام وله يدين . وذلك بالتدليل على أن كل شيء فيها ، اسلامى فى أصله ونشأته بداية من :

أ — تعريفات الفلسفة الاسلامية ، وترادفها مع الحكمة .

ب — موضوعها المتميز .

جـ — منهجها القائم على التأمل بالعقل والاستئناس بالنقل .

د — غايتها الموصلة الى معرفة سائر الكمالات الالهية بما يجعلها فى الذهن أشد ثباتا ، وفى الاعتقاد أعمق رسوخا .

هـ — القائمين بها واتجاهاتهم ومناهجهم ، وأنها أصيلة فى البيئة العربية على العموم والاسلامية على الخصوص .

و — قدرتها على اعادة طرح القضايا الجوهرية ، وصياغتها بحيث تؤدى الى النتائج التى لاينكرها الا مكابر ، ولا يعاندها الا معاند وتدل على أن الاسلام هو الدين الحق .

ل — بروز الفلسفة الاسلامية فى القرآن الكريم ، والسنة المطهرة بتعريفاتها وموضوعها ومناهجها بل وأقسامها بما يؤكد صحة انتسابها الى الاسلام والتأكيد على أنها جزء منه ، وأنها ضرورة من ضروراته التى تؤكد عليها . وقد كان ذلك منبثا فى البابين الأول والثانى .

بيد أن الغرض لم يتحقق ، فرأيت من الخير أن أجعل بابا مستقلا يحمل بين جوانحه الآمال الحبيسة التى تكاد تطل من رأس كل باحث ، وتنادى قائلة لابد من اعادة عرض القضايا الدينية عرضا يتفق مع الحقائق العلمية حتى لا ينظر المرء الى الدين والعلم ، باعتبارها أعداء ألداء . فى الوقت الذى يجب أن يكونا فيه أصدقاء أشداء .

بل أن البحث انتهى الى ضرورة بحث القضايا جميعها ، من خلال منظور اسلامى ، قرآنى يؤدى فى النهاية الى ضرورة معرفة الانسان بخالقه ، وانقياده التام له ، وتحقق به الانسان فى كل مكان ، ونعنى بالانقياد هنا ، الاتباع التام لما دعى اليه خاتم الأنبياء والرسل بل والايمان التام به صلى الله عليه وسلم . والعمل على اعادة طرح القضايا القديمة واستمرار البحث فى الحديثة على طريقة القرآن والسنة ، ومتابعة جهود العصر الحديث ، بيد أن رحالنا قد نال منها الجهد ، وقسوة الفيافى قد أوقفت منا استمرار المسير . حتى نضلت حط الرحال ريثما انجلى الليل وانفلق الصباح ، فأتمكن من مواصلة الترحال ، ولعل المحاولة يكتب لها بعض النجاح وتكون النتائج . تقييم الصراع الحاد — فى الظاهر — بين علم الكلام والفلسفة الاسلامية ، وحتما سنبحث ذلك فى الجزء الثانى . باذن الله تعالى .

المؤلف

" محمد حسينى موسى الغزالى "

الفصل الأول

تاريخه ونشـأته .

تمهيد

لكل علم ما يميزه ولا يطلق عليه علم ، الا اذا اشتمل على قواعد وأصــول ، عرف بها ويتميز عن غيره ، وكل علم أو فن من الفنون ، لابد أن تكــون له مسائل خاصة به ، يبحث فيها عنه أو فيه عليها ، تناولا وتقعيدا ، تفريقا أو تركيبـــا وسيلته في ذلك الوراثة الأكيدة للاصطلاح بمدلوله الفني ، الذى قعّـــد له لمتخصصـــون فيه والباحثون في أرجـائه .

سواء كان العلم استدلاليا (١) يحتاج الى مقدمات تأتى عنها نتائـــج ، سلمة أو بديهية ضرورية أو نظرية ، ولو بطرق اقناعية أو الزامية . وهذا النـــوع ن العلوم كثير وروده ، كالرياضة مثلا ، سواء في كمها المتصـــل القائم على الحركـة لمنتظمة ، كما في الميكانيكا بقسميها ديناميكا واستاتيكا ، أو الحركة والنظام .

أو في كمها المنفصل ، كما في علم الحساب والجبر والهندســة ، الأرقـــام لرموز والدلالات ، والأشكال ، ويطلق عليها جميعا أسم العلوم الرياضـــية أو لاســتدلاليــة .

أو كان العلم بدهيا (٢) بمعنى أن العقل الناضج السليم يدركـــه لأول علة دون مقدمات ، وهذا يدخل فيه كثير من التعريفات ، وقد يتسلل اســـم لبديهى الى بعض العلوم فيشاركها في بعض موضوعاتها ، سواء كان المنطـــق الفلسفة أو الرياضة ، والعلوم العقلية البحتة على اختلاف مناهجها .

أو كان العلم ضروريا ، تأتى مقدماته ونتائجه مقترنات ، وينشأ من مصـــادر

---

(١) العلم الاستدلالى : هو الذى لايحصل بدون نظر وفكر ، وقيل هو الذى لا لايكون تحصيله مقدورا للعبد " راجع التعريفات للجرجانى باب العين .

(٢) البديهى : هو الذى لايتوقف حصوله على نظر وكسب ، سواء احتاج الى شىء آخر من حدس أو تجربة أو غير ذلك . أو لم يحتج " راجع التعريفات باب الباء .

المعرفة فى الانسان الكامل ، سواء كان المصدر الحواس الخمس الظاهرة أو الباطنة . أو كان العقل أو الالهام ، وبعضه يكفى فيه مجرد توجه الحواس اليه كضرورة وجود ضوء الشمس لمن يراه ، وحلاوة الطعام لمن يتذوقه ، ومرارة الحنظل لمن يطعمه ، ويسمى العلم الانطباعى كما يسمى العلم الحصولى أيضا .

ومهما كان الأمر ، فان كل علم لا يعرف الا اذا تميز عن غيره بمسائله الخاصة وبحوثه المستقلة ، وموضوعه المتميز ، وغايته المرجوة ، وهو فى كل هذا لا يخرج عن مصدرين أساسيين فى جملته . والمصدران هما :

المصدر الأول : العلم الاكتسابى (١) أو الكسبى .

وهو علم حصل عن طريق الغير ، بالتعلم والتعليم ، ولابد فيه من أسباب تباشر ليحصل بها العلم للمرء ذاته ، وعملية مباشرة الأسباب ، هى انفعال بالغير لا محالة . ولذلك نستطيع اطلاق اسم العلم الانفعالى (٢) والعلم المنفعل به على هذا النوع ، الحاصل عن طريق الغير ، وهذا العلم ميدانه رحيب فى العلوم النظرية والعلمية على السواء .

ولا نقصد بالغير تحديد غير بذاته فقط نريد بالغير ، من يتعلم منه المرء ، يدخل فيه الانسان ، والحيوان وما يعطى مفهوما محددا ، أو يكتسب منه العاقل حيلة ، وقد أشار القرآن الكريم الى شىء من ذلك . قال تعالى " :
" فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه . قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى فأصبح من النادمين (٣) " .

١ـ العلم الاكتسابى : هو الذى يحصل بمباشرة الأسباب " راجع التعريفات باب العين .
٢ ـ العلم الانفعالى : ما أخذ من الغير " راجع المصدر السابق باب العين .
٣ ـ " سورة المائدة الآية ٣١ " .

من هنا تعلم الانسان من غير الانسان ، كيف يوارى جيفة أخيه اذا فارق الحياة .

ولعل القرآن الكريم ، قد نبه الى قضية العلم الاكتسابى كلية حين قال : " والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون " (١) .

المصدر الثانى : العلم الالهامى — أو العلم الالهى :

هو الذى ينشأ عنه قريحة صافية ، وفيوضات الهية ، والهامات ربانية ، وهو لايحتاج الى أسباب تباشر ، أو موضوعات تطرح . كما أنه ليس بحاجة الى مناهج ضاربة فى الغموض والالتواء ، أو واقعة تحت الشطح أو الجنوح ، وهو علم فعلى بمعنى أنه لايؤخذ من غير الله بحال ، ولا مجال فيه لغير فيوضات الله تعالى وهو الهامى فى أكمل معانى الالهام . ومن هنا نسب الى البارئ جل وعلا ابتداء ونسب الى فضل الله — الهاما وانتهاء .

بيد أن هنالك بعض الجهود ، تركزت حول تصنيف العلوم . وتوضيح كل منها بما يميزه عن غيره . من خلال التسمية ، أو الموضوع ، والمنهج أيضا ، مما جعل اضافة لفظ العلم الى ما بعده ، أو وصفه به هى البيان له . والدلالة عليه والقول الشارح . فاذا قيل " علم الكلام " مثلا فقد بان أن المراد من لفظ العلم المضاف الى الكلام وهو أن علم الكلام ، علم يبحث فيه عن الأعراض الذاتية للموجود ، من حيث هو على قاعدة الاسلام . (٢)

وكذلك على النحو ، والصرف ، والبلاغة وعلوم اللغة كلها ، وعلوم القرآن الكريم ، وعلوم السنة النبوية المطهرة ، وعلوم الدنيا . وعلوم الدين ، سواء أضيف

---

(١) " سورة النحل " الآية ٧٨

(٢) وردت تعريفات عدة لعلم الكلام . سنذكر ما نتمكن منه عند الحديث عن التعريف بعلم الكلام . من ناحية الحد ، والرسم ، والموضوع .

الى لفظ العلم ما يخصصه أو يوصف به . فانه محدد له لا محالة ، ومن هنـــا يكون التحديد الوصفى أو الاضافى ، اصطلاحا خاصا ، تواضـع عليــه الباحثون فيه بحيث يكون ملزما لكل من يقبل ذلك الاصطلاح . ولذا فان جريان البحث حينئذ يكون عند كل قوم فيما يخصهم ، ونسميه الاصطلاح الخاص" ونبدأ بعلم الكـــلام .

تاريخ علم الكلام

لكل علم تاريخ فيه ابتكر — ان كان مما يبتكر — أو دوّن فيه — ان كان مما يدوّن — تلك ناحية وهناك ناحية أخرى ، هى أن لكل علم تاريخا تم فيه التأليف والبحث والتقرير .

وعلم الكلام ، كأى علم من العلوم . له تاريخ ضم فى حناياه كلا من الناحيتين — الابتكار والتدوين . والبحث والتقرير . مما يستوجب افراد فترات زمنية نتناوله فيها تاريخيا . وهنا نقرر حقيقة واقعية هى ، أن تقرير العقيدة الالهية وتقريبها الى الأذهان ، هى مهمة علم الكلام ، وتلك الحقيقة ما خلا عنها زمن أبدا . ولذا نشطر التاريخ فيه الى :

١ — قبل الاسلام .
٢ — فى ظل الاسلام .

أما عن الفترة الأولى — قبل الاسلام ، فتنقسم الى :

أ — فى غير البيئة العربية .
ب — فى البيئة العربية .

ونبدأ بالبيئة غير العربية .

تاريخ علم الكلام فى البيئة غير العربية قبل الاسلام

ثبت من النص القرآنى الكريم استخلاف آدم عليه السلام وذريته من بعد ، فى الأرض ، كما تأكد أن آدم عليه السلام بعث الى بنيه ، وعرّفهم بالخالق العلى القدير ، وهداهم اليه ، حتى قرت فى أذهانهم كمالاته تعالى ، وكانت قصة بنيه الأولين ، تأكيدا لذات المفهوم ، وذلك ما أشارت اليه آيات القرآن الكريم فى قوله تعالى " واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق . إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر . قال لأقتلنّك . قال إنما يتقبل الله من المتقين"(١).

وتفرق بنوه فى كل مكان وصلوا اليه ، وحملوا معهم مفهوم تقرير العقائد الايمانية الذى رسخه فى أعماقهم أبوهم آدم عليه السلام ، وجاءت أنبياؤهم اليهم تترى ، ورسلهم اليهم لاينقطعون وفى كل رسالة ، ومع كل نبوة ، يتقرر الأمر " أمر اثبات العقيدة الايمانية ، ومحاولة تأكيدها وتفريغها من كل دخيل ، وتنقيتها من كل شائبة ، وذلك فى حد ذاته ، هو علم الكلام .

وعلم الكلام بهذا المعنى ، ساد الأمم الموحدة جميعها ، وكان السمة البارزة لكل المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره بحيث لم تخل منه أمة أنزلت عليها رسالة السماء ، وأخذت بها ، أو أنزلت فيها الكتب أو الصحف .

"وهذا النوع من العلم ــ علم تقرير العقائد ، وبيان ما جاء فى النبوات ــ كان معروفا عند الأمم قبل الاسلام . ففى كل أمة كان القائمون بأمر الدين يعملون لحفظه وتأييده ، وكان البيان من أول وسائلهم فى ذلك" (٢) سواء منهم الصينيون والهنود ، أو سكان البلاد المجهولة ، أو العالم الجديد ، وحتى الأمم

---

(١) سورة المائدة الآية ٢٧ ومابعدها من آيات .

(٢) الاستاذ الامام / محمد عبده ــ رسالة التوحيد ص ٢٣ تحقيق الدكتور / محمود أبو رية ، دار المعارف ط ٤ .

التى لم يعرّف التاريخ بها ، والفرض قال بها ، نجد ذلك فى كتاباتهم المنقولة المحفورة منها والبارزة ، وما خلت التعاليم من بيان ذلك قط .
حتى الأساطير القديمة ، لم تخل من ذلك ، نجده فى أسطورة ايزيس المصرية وأشعار هيزيود ، وملاحم هوميروس اليونانية ، وفى كل هذه البيئات ، كان تقرير العقيدة الايمانية يجد صداه ، ويكتسب أنصاره ، ويجتذب من آن لآخر ، ذوى العقول الرشيدة والفطر النقية . والهمم العالية .

بيد أن سريانه لم يتخذ شكلا محددا ، كما لم ينج من سطوة التاريخ فراح فى سِنَةٍ من النسيان حين أتخذ القائمون عليه أمرا مقضيا ، حيث سلكوا به مسلكا غير قويم ، مما دفع العقلاء منهم الى التردد فيه ، والتخلى عنه ، وكانوا قبل ذلك أعوانا مخلصين ، وأنصارا متفانين ، يعرف ذلك المتابعون لتاريخ الأمم .

ومن هنا انحطت الفكرة ، وسقط الهدف ، وتحركت فى الأنفس عبادة الأشكال والرموز والتعلق بالقشور ، فعبدوا المقربين ، وانحنوا أمام السلاطين ، وألّهوا المخلوقين ، فمن عابد للنار ، الى عابد للشمس ، الى قابع تحت أظافر البقر الى هائم بضياء القمر ، ولم تسلم من ذلك التقديس الزلازل والبراكين ، والنبات والشجر ، وصار علم الكلام فيها لونا من العبادة وضربا من الخلود والسكينة ، ولعل القرآن الكريم أفاض فى تصوير ذلك . حيث نهى عن عبادة المخلوق وأمر بالتوجه نحو الخالق " ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لاتسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن ان كنتم اياه تعبدون " (١)

وحتى الليل والنهار لم يسلما من ذلك التقديس ، مع أنهما فى عبادة دائمة لله الواحد الأحد ، وتسبيح مستمر بجلال ذاته " تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وان من شئ الا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم انه كان حليما غفورا " (٢)

---

(١) سورة فصلت الاية ٣٧
(٢) سورة الاسراء الاية ٤٤ .

وسطروا تعاليمهم فى مكتوبات أستظهروها ، وظهرت فرقة منهم تسيطر على الجميع باسم الدين ، وكان القائمون على أمر هذا الدين — من شارحين ومعلمين يلجأون الى النقل الذى سجلوه بأنفسهم ، يستلهمونه مايشاؤن ، خاصة عندما يحاولون رسم عقيدتهم ، أو يؤسسون ما تقوم عليه .

وكان الفيصل فى ذلك كله ، ثمرة فكرهم ، وما تمخض من آرائهم ، وكان النقل عندهم هو الفيصل ، وفهم الشراح له هو الحكم والقاضى معا ، بحيث يكون الالتجاء الى العقل ضربا من السفه ، ولونا من الجنون " وكانوا قلما ينحون فى بيانهم نحو الدليل العقلى . وبناء آرائهم وعقائدهم على مافى طبيعة الوجود ، أو مايشتمل عليه نظام الكون " (١)

ولم يكن لواحد منهم الحق فى أن يتجه أثناء بناء عقيدته نحو الكون ، أو تأمل ما فى طبيعة الوجود ، يعرف ذلك من درس تاريخ المسيحية ، وعرف محاكم التفتيش وكان جل اعتمادهم على ما يلقى اليهم من خلال قسسهم ومعلميهم ، وكانت التلقينات مؤقتة ، تنتهى بمجرد غيبة المبلغ ، حتى أن نظام الكون رغم بداعة صنعه ، لم يحاول أحدهم أن يتأمله ، مجرد تأمل ، خوفا من شيطان يمسه أو نار تحرقه أو سلطان يطارده .

وكلما أندفعت العقول نحو التأمل ، ارتدت الى الخلف بلا هوادة ، تصدها عن التأمل سطوة مقنعة لرجال ممن عاشوا فى رحاب الكهنوت ، بعيدا عن ميدان النظر العقلى ، وكم جاءت آيات القرآن الكريم ناعية على أمثال هؤلاء ، داعية اياهم وغيرهم للنظر ، الموصل الى معرفة الكون المخلوق " قل أنظروا ماذا فى السماوات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون " (٢) للتعرف عليه وصولا لمعرفة خالقه جل وعلا " الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى " (٣)

---

(١) الامام محمد عبده رسالة التوحيد ص ٢٣
(٢) سورة يونس عليه السلام الاية ١٠١
(٣) سورة طه الآية ٥٠

قال تعالى : " أفلم ينظروا الى السماء فوقهم ، كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج . والأرض مددناها . وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركا . فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج " (١)

وقوله تعالى .

" أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت . والى السماء كيف رفعت . والى الجبال كيف نصبت . والى الأرض كيف سطحت . فذكر انما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر " (٢)

وقوله تعالى .

" تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شئ قدير . الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور . الذى خلق سبع سماوات طباقا ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم أرجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير . ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير " (٣)

وآيات القرآن الكريم فى هذا الشأن كثيرة ، يعرف هذا من يطالعها فى جلال ومهابة . ولعل رجال الدين المسيحى ، حاولوا أن يضمنوا لأنفسهم ذيوع شهرة وتجاها فوق اعتراض العقل . ومراكز سلطانية عليا باسم الدين ، فأوهموا الناس أن العقل عدو للدين ويجب خضوعه التام للدين ، وأعنى بالدين . مايفسره القسس والرهبان ، مهما كانت نتائج العقل بديهية ، وكانت تعاليم الدين شروحا يجتهد فى فهمها الكهنة .

---

(١) سورة ق الآيات ٦ — ١١
(٢) سورة الغاشية الآيات ١٧ — ٢٢
(٣) سورة الملك الآيات ١ — ٥

من هنا وسعوا الشقة بين الدين والعقل ، وقام بهذا الدور ، رجال الكنيسة على أوسع نطاق . " وكثيرا ما صرح الدين على لسان رؤسائه ، أنه عدو العقل نتائجه ومقدماته ، فكان جل ما في علوم الكلام . تأويل وتفسير ، وادهاش بالمعجزات أو الهاء بالخيالات " (١)

حتى وقعت بين الدين والعقل الخلافات ، وكثيرا ما كان القول الفصل فيها سلطان كنسي أو دين كهنوتي ، وما حرق جاليليو وكوبر نيقوس . الا صورة من تلك الصور التي يقف الدين بسلطانه ، ضد العقل ونتائجه (٢) ولم يقتصر الأمر على هذا بل راح رجال الدين بما لهم من نفوذ كهنوتي يطوعون علم الكلام لمفهومهم فقط ، وصاروا يرددون قضية أشبه بالخرافة هي : خذ وأنت أعمى ، وكثيرا ما كانوا يملون مثل هذه القضايا على مرؤسيهم . مثل . لاتناقش . هكذا تعلم .

ولم يكن للعقل عندهم أدنى نصيب . فكان علم الكلام عندهم . تفويض الأعمى ، وتسليم المنهزم واندفاع لا مرد له . ولاسند معهم عليه . وكان من جراء ذلك كله ، أن وقع الناس في عبادة غير الله . " حتى قدسوا المقربين — في ظنهم — وعبدوا المخلوقين . يعلم هذا من له المامة بتاريخ اليهودية والنصرانية حتى بين المتدينين منهم قبل نزول القرآن الكريم أما غيرهم من بقية أهل الأرض ، فجمعت بينهم المنافع والرغائب ، أو المخاوف والمهالك ، فقد سوا الشمس وعبدوها أو الكواكب أو النار ، أو الأبقار ، أو الماء أو الزلازل ، أو الرعد أو البرق أو الأوثان ، أو القوات الخفية التي لم يستطيعوا الافصاح عنها .... واتخذ الرؤساء الناس خدما وعبيدا باسم الدين المزيف ، حتى ظن المرؤسون أنهم خلقوا لخدمة الرؤساء والكهان والمشعوذين " (٣)

---

(١) الامام محمد عبده رسالة التوحيد ص ٢٣
(٢) راجع محاكم التفتيش في العصور الوسطى . في كل من كتب القانون والفلسفة .
(٣) الاستاذ الدكتور / على محمد جبر — محاضرات في علم الكلام ص ١٠

وكم شهدت الآثار قبل الاسلام ، بما لايمكن دفعه ، ولعل كتب الدراسات اللاهوتية أفصحت عن الكثير من ذلك ، حتى جعلت قس المسيحية يدعى بعضهم أنه معبأ بالروح القدس ، وأنه موكل على معجزات خافية ، لايتمكن منها أحد سواه ، وما تزال تلك الادعاءات حتى الوقت الراهن — رغم التقدم العلمي والتطور التكنولوجي — (١) ، تجد من يتبناها ويتعهدها ، فضلا عن اعتقادها والدعوة لها ، ورغم عجزها عن اثبات ما تدعيه وفشلها في اثبات أن ما تنتسب اليه يقارب الحق أو يشد الى جدار اليقين .

ومازلنا نسمع عن هؤلاء وأولئك ، الذين يدعون كمالهم الروحي ، وتفوقهم الالهامي ، وقدرتهم على الاتصال بالملأ الأعلى ، وحجرهم على غيرهم ، تحت أي من الأسماء التي يجدون لها رواجا في أسواقهم ، أو بريقا في منتدياتهم ومحاولاتهم الدؤبة ، تحجيم العقل الانساني واغلاله بكل القيود ، حتى في أمور البداهة والتي لا يختلف عليها اثنان من العقلاء ، ولو كان في ذلك القيد تكميم للأفواه ، وتعتيم للرؤى ، وتضليل للافهام .

ومما تجدر الاشارة اليه ، أننا في هذا العصر العلمي الرهيب ، نسمع من دعاة دين ، ما كان يلقى في العهود المظلمة ويجد له آنها صدى . من أن الدين عدو للعقل ، وأن العقل لايفهم الدين . وأن ما أنزله الله في الكتاب المقدس لايستطيع أي عقل أن يفهمه ، لأن الأول كلام الله ، والثاني مخلوق غريب لايتمكن من فهم كلام الله (٢) . ولست أدري اذا كان لايفهمه ، فلماذا يكلفه به ؟!

---

(١) أنظر معجزات البابا كيرلس السادس ثمانية أجزاء .

(٢) ما يزال رجال المسيحية يعلنون هذا في كل وقت ، وحتى الآن ، واقرأ ان شئت " عصمة الكتاب المقدس واستحالة تحريفه " للقس صموئيل مشرقي .

في البيئة العربيـــــة

لم تكن الجزيرة العربية — قبل الاسلام — أحسن حالا من غيرها ، بـــــل كانت البداوة تغطى كل جنباتها ، فاذا ذهبنا نتلمس سيرة علم الكلام فيها مـــن خلال مرويات صحاريها ، واستلهام قمم جبالها ، فالغالب أننا لا نجد صـــورة واضحة محددة ، ومرجع ذلك لأن علم الكلام فيها ، أتخذ لنفسه دروبا وعرة وسط تلك الغياهب البعيدة الغور ، ينبىء عن ذلك ما فى الجزيرة ، وما أبانت عنـــه كتابات الماضـــى .

ولذا سلك علم الكلام مسلكا ، لا ينم عنه الا صوت خافت ، يناجى ربه تحـــت ظلال ليل كثيف ، أو متخف فى ثوب شفيف ، أو حكيم خبر الكون بعيدا عن رقابـــة المتربصين ، أو متستر بالتجارة متسربل فى الظعن والاقامة ، أشعث أغبـــــر ، لا ينبىء عنه مظهر ، ولا يقوم دليل عليه لمخبر .

ولم تخل الجزيرة العربية من هذا اللون — علم الكلام — حتى فى مدلهـــم جاهليتها ، فقد وجد فيها من يقررون العقائد الايمانية ، من خلال ما ترنـــوا اليهم نفوسهم وتزكوا ، حتى صارت تقاريرهم حقائق يتوارثها الأبناء عن الآبــاء . وكانوا بمثابة بصيص النور فى حالك الظلمات ، وأولئك هم الحنفاء ، الذين سموا بأنفسهم عن نزعة العرق ، وبعقولهم عن دارج العرف ، وبسلوكهم عن تقليد الالف وموروث العادة ، وأخضعوا حياتهم لمقتضى ما أتيح لهم من العلم والحكمة .

ومن هنا كان علم الكلام عندهم لا شائبة فيه من حيث تقرير عقائدهم الايمانيـــة يقوم بمهمته على وجه معين ، بقدر ما أتيح لهم ، وكان مفهومه عند الحنفاء راقيـا نبيلا ، لدرجة أنه جاوز بهم طبقات كل العقائد الوثنية ، الى توحيد البارى جل وعلا ، والقيام على شريعته بما يرضيه ، ولم تخل كتب الأدب والسيرة من الحديـــث عن بعض هؤلاء الحنفاء .

وبرز علم الكلام عندهم فى سلوك عملى يمارسونه آناء الليل وأطراف النهار ، ومن دلوك الشمس الى غسق القمر ، ولعل أبرز من حفظت لهم الآثار ، وتحدثت عنهم الأخبار ما يلى :

١ — قصى بن كلاب

وهو الجد السادس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان له الهام بالعقيدة الدينية السليمة حتى كان يتأمل الكون كثيرا ، ويحاول جاهدا متابعة البحث فيه واطالة التفكير عنه ، وامعان النظر حوله ، ومات قبل البعثة النبوية بكثير .

٢ — قس بن ساعدة الايادى

من رجال الحنفاء الذين كانت لهم صولات وجولات فى رحاب ملكوت الله الواسع ، حتى عكف على نفسه ، وراح يطالع الكون ويتأمله ، ويطالع ما معه من وريقات اختلسها الزمان من باقى كتب تليدة ، وكان له ولع بها .

وقد وصل بصحيح تفكيره الى توحيد البارى ، ونبذ الأوثان وترك الأصنام حتى صار علم الكلام عنده واضحا جليا ، ينبىء عنه ما نسب اليه من نظم جاء فيه :

أرب واحد أم ألف رب ... أدين اذا تقسمت الأمور
تركت اللات والعزى جميعا ... كذلك يفعل الرجل البصير
فلا العزى أزور ولا ابنتيها ... ولا صنم لبنى عم أزور . (١)

ولم يطل عمر قس ، فمات قبل النبوة المحمدية بقليل ، وان كان شعره يؤخذ دليلا على مسيرة علم الكلام ومنهجه فى الجزيرة العربية قبل الاسلام .

---

(١) وهذا النظم فى حد ذاته يرسم صورة واعية من صور الايمان المطلق بالله سبحانه وتعالى ، ونبذ الشريك ، مع تنزيه البارى عن كل شبيه .

٣ — ورقة بن نوفـــل

ابن عم السيدة خديجة بنت خويلد ، أم المؤمنين ، وزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان لورقة " لمام بالكتب المنزلة ، التى تحدثت عن بعثة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ومولده ومبعثه ومهجره ، وكان ورقة متحنفا لحد كبير ولذا آمن قبل البعثة بنبيها ، فلما بعث الحبيب المصطفى ، كان ورقة أول المؤمنين به .

ونحى ورقة بعلم الكلام منحى ، يقوم لا على التقرير فقط ، بل على الشرح والتوضيح والدفاع عنه قبل الاسلام ، يدل عليه أنسياب الناس نحوه ، يسألونه عن أمر الكتب المنزلة ، ويستكشفون من خلاله صفحات الماضى القريب ، فكان من أولئك الذين عندهم علم من الكتاب ويقومون بواجبه .

ولا أدل على ذلك من توجه السيدة خديجة رضوان الله عليها اليه ، لتسأله عما عرض لرسول الله قبل البعثة ، حيث جاء جبريل الأمين المرة الأولى ، وعاد الرسول صلى الله عليه وسلم الى بيته يسأل السيدة خديجة الدفء ، والهدوء زملونى زملونى ، وتهرع الى ورقة فتعرف منه الخبر ، خبر النبوة الصادقة .

ويطمئن ورقة النبى صلى الله عليه وسلم ، ويعلمه أن الذى جاء فى الغار هو رسول الله الى رسل الله ، أنه الوحى الأمين ، الذى جاء الى موسى وعيسى والمصطفين ، بل يعلن استعداده التام للمهاجرة مع رسول الله حين يشتد الكرب ، ويقل العون البشرى ، ويأتى الأمر الالهى بالهجرة ، فيقول ورقة ليتنى معك اذ يخرجك قومك " (١)

وما ذلك الا دليل على أن ورقة بن نوفل ، كان [illegible] من الكتاب احتفظ به وسار على هديه ينهج بعلم الكلام المنهج الاسمى ، ويطل به فى شفافية صائبة وبراعة مطلوبه فوق القرناء .

---

(١) راجع كتب السيرة ، والروض الأنف ، وسيرة ابن هشام .

٤ — أمية بن أبي الصلت

وهو من الحنفاء الذين وهبوا نعمة المال والعقل ، وقد جدّ في طريقه محاولا الوصول الى الغرض الأسمى ، وكم راودته نفسه ليكون نبي العرب ، وكم كان يسعى اليها ويطمح ، ويقال انه ظل على ذلك ردحا طويلا ، وكان علم الكلام عنده ، تقرير العقيدة الايمانية بناحية تطبيقية ، حيث راح يطيل في تعبده ويمكث مستغرقا في تأمله .

غير أن ذلك منه ، لم يكن الا لغرض النبوة ، وكان يطمع فيها ، فلما بعث الله النبي محمدا صلى الله عليه وسلم ، لم يطق أمية ذلك ، ويقال انه ارتد عن تحنثه ، ونصب النبي العداء ، ويقال انه مات على ذلك الكفر وله شعر جيد رصين في هذا الطريق الذي بدأه أولا .

٥ — زيد بن عمرو بن نفيل القرشي .

وكان له اتجاه صائب ، حاول من خلاله التأكيد على وجود الله ، وحاول أن يرسم صورة واضحة لما أملاه عليه وجدانه ، وكان من الحنفاء الذين تعودوا على موارد الفهم وينابيع المعرفة الالهامية فأثرت عنه هذه الأبيات :

فأسلمت وجهي لمن أسلمت	له الأرض تحمل صخرا ثقالا .
دحاها فلما رآها استوت	على الماء أرسى عليها الجبالا
وأسلمت وجهي لمن أسلمت	له المزن تحمل عذبا زلالا
اذا هي سيقت الى بلدة	أطاعت فصبت عليها سجالا " (١)

---

(١) الاستاذ / عبدالجواد رجب — مع الله نظرات في الكون والحياة ص ٥ ط ٢ دار الاعتصام .

٦ ــ عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف :

جد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومربيه بعد وفاة والدته السيدة آمنة بنت وهب ، وهو الذى أعتق جاريته عندما ولد النبى صلى الله عليه وسلم ، ويقال إنه الذى سمى النبى باسم " محمد " صلى الله عليه وسلم ، ويقال إنه لما سئل فى تلك التسمية ، قال : سميته محمداً ليكون محموداً بين الله والناس .

وكان عبد المطلب من الحنفاء ، الذين رسموا العقيدة الايمانية فى بيان عملى ينبىء عنها موقف واضح ، يزكى فيه العقيدة الدينية " وقد تجلت عقيدته الدينية حين انتفض فى وجه أبرهة الأشرم . معلنا له أن سلطان الله بما يملك ، أقوى من أى سلطان آخر ، وأن الأرض مظاهر لقدسيته . فها هو البيت الحرام ، فالله يحميه ، لأنه بيته ، أما الابل فهى لى ، وأنا صاحبها وأما البيت فله رب يحميه "(١) وكان رده على حناطة الحميرى نذير أبرهة " هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله ابراهيم عليه السلام ، فإنْ يمنعه منه فهو بيته وحرمته ، وإنْ يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه " (٢) .

وينطلق عبد المطلب فى ثقة ويقين بعد أن طالب أبرهة بالأبل ، مقررا فى مناجاة خالدة ، وترنيمة عذبة ما حفلت به كتب الآثار ، وتحدثت عنه السيرة ، فيقول

(أ) .

يارب لا أرجو لهم سواكا	يارب فامنع منهم حماكا
ان عدو البيت من عاداكا	امنعهموا أن يخربوا قراكا (٣)

(ب) ويروى عنه قوله :

لاهم ان العبد يمنع رحله فامنع حلالك

---

(١) الاستاذ الدكتور / رفقى زاهر . الفلسفة الاسلامية فى المشرق ص٩ بتصرف .
(٢) سيرة بن هشام ط الشعب ص ٤٩
(٣) الدكتور / محمود محمد زيادة ــ العرب وظهور الاسلام ص ٦٥ ط الاولى

لا يغلبن صليبهم ومحالهم عدوا محالك
ان كنت تاركهم وقبلتنا فأمر ما بدالك (١)

(جـ) ويقول :

لاهم ان العبد يمنع رحله فامنع حلالك
وأنصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك
هم جردوا لك جمعهم والفيل كي يسبوا عيالك
فان كنت تاركهم وقبلتنا فأفعل ما بدالك

" وكان عبد المطلب معروفا بين قومه بالتوفيق والالهام الالهى فى كثير من الأمور " (٢)

ولعل تلك المنظومات ترسم لنا ملامح ايمانية واضحة ، يمكن أن يستشف منها علم الكلام قبل الاسلام ، فى سيرة بين أهل الجزيرة العربية ، وأنه كان يتلمس طريقه ، فى صعوبة بالغة ، وقد تكاثرت السحب من حواليه ، الا أنه جمع أتباعه الى طريق رشيد ، لم ينحدر بهم نحو الهاوية .

وقد كان الحنفاء — رغم قلة عددهم — أصحاب نفوذ ومع أنه محدود ، الاأنهم رسموا لعلم الكلام خطا واضحا ، وساروا فيه ، حتى تأكدوا أنه — علم الكلام — من حيث تقرير العقيدة الايمانية ، يأخذ بهم الى الخير ، ويشبع فى المرء رغباته العقلية والوجدانية الدينية ، فى حدود مارسمه الأنبياء ، وسار عليه المرسلون مع أممهم .

(١) سيرة النبى صلى الله عليه وسلم لابن هشام ص ٥١ جـ١ ط الشعب
(٢) الدكتور / محمود محمد زيادة — العرب وظهور الاسلام ص ١٤٢ ط الاولى .

ومن هنا نرى الحنفاء ، أصحاب فكر متحرر — وعقول منطلقة ، وألباب متطلعة ، رغم ضآلة العدد ، وتباعد الأمكنة ، واختلاف الأزمنة ، وظلوا على ذلك حتى جاء الاسلام ، فكان هناك منهج آخر لعلم الكلام .

تاريخ علـــم الكلام فى ظل الاســلام

أ ــ فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم

رأينا كيف كان حال العالم قبل الاسلام ، ولمسنا موقف العقل البشرى ومسيرة علم الكلام ، بيد أن الملاحظة الجديرة بالاهتمام هى : أن تأثير الحنفاء كــان ضئيلا ، ومن هنا راح العقل الانسانى يتخبط فى سيره ، حتى أوشك الطريـــق أن يتم الانغلاق عليه ، فيتردى العالم فى مهجعه ، وراح الظلام يغطى كـــل الجنبات . حتى صار الكون فى ترقب مستمر لنبى يخلصه من أزماته ، ويفك العقــل من أسره ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم .

جاء ليأخذ الناس الى حيث يهديهم لخالقهم العظيم ، دون خوف من غيـره ويأخذ بأيديهم الى خيرى الدنيا والآخرة ، وراحت آيات القرآن الكريم تنتشـــل العقل البشرى من غارق ظلامه ، الى قمة نور يطالعه ، حيث رسم القرآن الكريـــم للناس طرق العبادة الحقة ، وكيف يكون تقديس الاله العظيم جل وعلا .

ولم يقف القرآن الكريم ، عند هذا الحد بل نبه العقول الى ما حولهـــا مـــن الكائنات ، وأيقظها لتتعرف على ما فى طاقاتها من امكانيات ، تعلن فى وضـــوح أن المرء مخلوق الله العلام القدير . وحق للقرآن الكريم ، أن يكون الروح الباعـث للبشرية الميتة ، وحق للرسول صلى الله عليه وسلم أن يكون النور الواضح للهدايـة الربانية ، حتى تلاقى النوران .

" وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا . ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان . ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا . وانك لتهدى الى صـــــراط مســـتقيم " . (١)

(١) سورة الشورى الآية ٥٢

ومن هنا أكد القرآن الكريم ، مؤاخاة العقل للدين ، ولم يعد الأمر كما فى سلبية الماضى ،حتى يغل العقل بالدين ، أو يحجر عليه باسمه ، وانما كانت المؤاخاة ، التى لفت علم الكلام فى ثناياها ، وطوته تحت جناحيها . مما كان له أبعد الأثر الايجابى ، فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما هى تلك المؤاخاة ، وما مظاهرها ، وأبعادها ؟

والباحث يواجه ألوانا عديدة من تلك المؤاخاة .

١ — مؤاخاة احترام الدين للعقل حين جعل الدين العقل وحده محط التكليف ، وجهة الخطاب بحيث أعتبر الاسلام فاقد العقل الاجبارى ، غير مكلف بشئ من العقيدة والشريعة الاسلامية ، وأكد أنه لاتسجل عليه الملائكة البررة ما يصدر عنه من أفعال لأنها لا تصدر عنه باعتباره مكلفا ، فقال صلى الله عليه وسلم " رفع القلم عن ثلاث ، عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبى حتى يبلغ ، وعن المجنون حتى يفيق " (١) وأكدت شريعة الاسلام على ذلك كثيرا سواء فى العبادات أو المعاملات أو الجنايات ، لعدم أهلية فاقد العقل لمباشرة شئ من ذلك .

٢ — مؤاخاة أكبر وهو دين الاسلام ، لأصغر وهو العقل الانسانى المكلف ، التى تتجلى فى توجيه الأول للثانى ، بحيث يتحقق من ذلك التوجيه ، غرض أسمى راجع للمكلف فى حد ذاته ، حتى لا يكون عليه سلطان من غيره بعد بيان التكليف ، وذلك التوجيه يجعل صورة الماضى بعيدة وقريبة ماثلة للأذهان كأنها حاضرة فى الأعيان ، ولعل ذلك ما يوجه اليه قوله جل وعلا " وما ارسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم من أهل القرى . أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين أتقوا أفلا تعقلون "(٢)

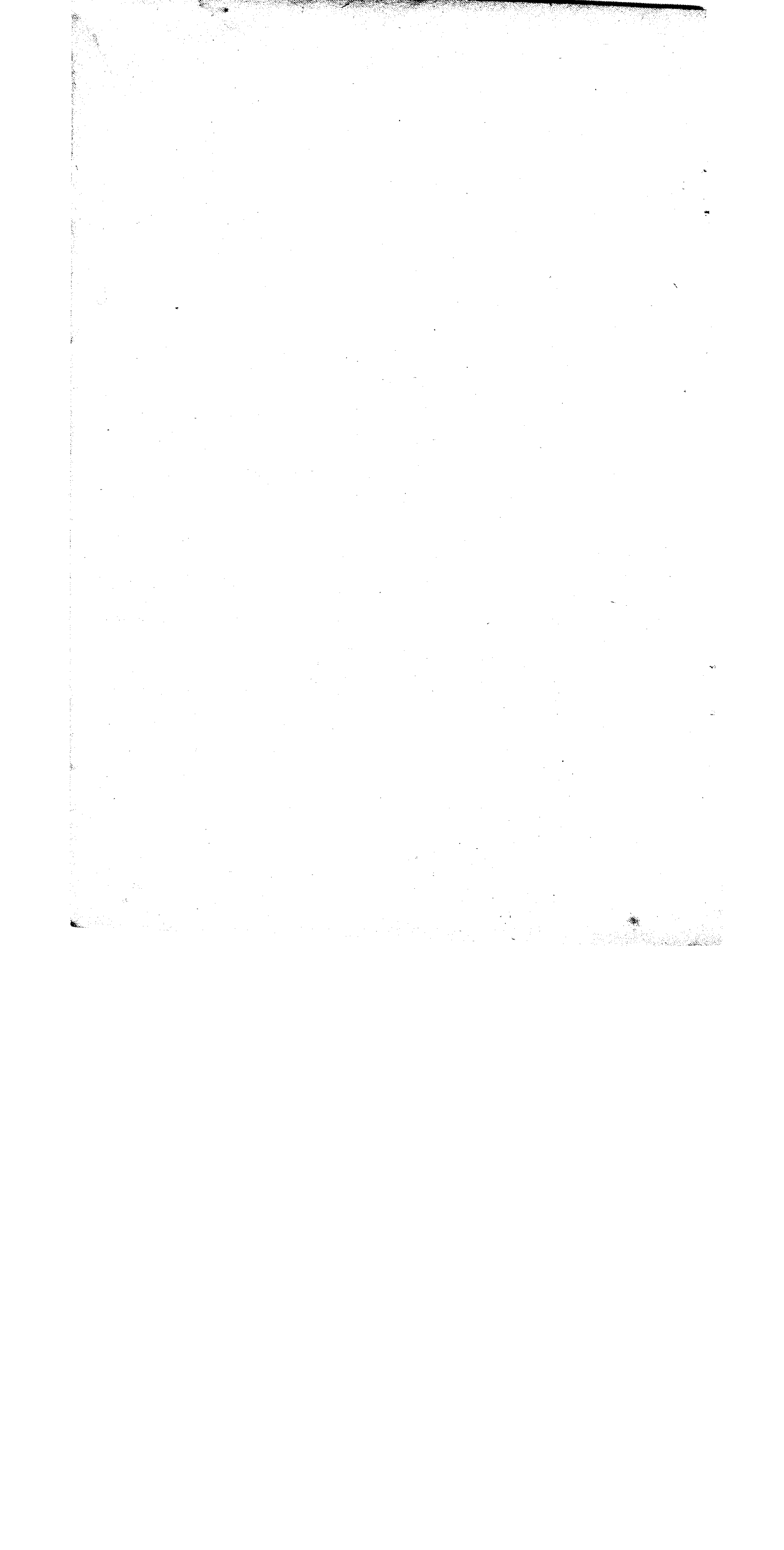
---

(١) كشف الخفاء ومزيل الالباس ١/١٣٩٤ وأخرجه احمد فى مسنده ٦/١٠٠

(٢) سورة يوسف الآية ١٠٩

٣ — مؤاخاة اندماج . بحيث لايصلح الدين لغير العقلاء ، ولاتسلم للعقلاء الدنيا والآخرة ، الا اذا كانوا تحت جناح دين الاسلام ومستظلين ، ولنبعه الصافي مرتشفين ، ولتعاليمه القويمة سائرين ومستمسكين .

وقد أكد القرآن الكريم على تلك المؤاخاة ، كما سيتضح فيما بعد .



وغير ذلك من الآيات التى تحدثت عن قيمة العقل الانسانى ، ومكانته فى الدين الاسلامى . والحمد لله أن هنالك رسائل جامعية فى هذا الموضوع (١) . ونأمل لها التوفيق والاستمرار ، ومنها قوله تعالى :

" وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم من أهل القرى . أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم . ولدار الآخرة خير للذين أتقوا أفلا تعقلون " (٢) " أنظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون " (٣) .

" وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون " (٤)

" وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون " (٥) .

وغير ذلك من الآيات التى تحدثت عن العقل ومكانته فى الدين الاسلامى باعتباره محل التكاليف الشرعية ، وجوانب العقيدة الايمانية ، التى اذا استضاء العقل الانسانى بنورها أضاءت له جوانحه جميعها ، بحيث لا يصدر فى شيء من أفعاله الا عن صواب ، ولا ينأى عن مخالف الا بسند قوى ، وركن شديد .

حقا ان العقل الانسانى له حدود معينة ، بحيث اذا تجاوزها وقع فى أمر محظور عليه كالغيب ، ولهذا لم يكلفه الاسلام بالبحث فيه أو عنه ، وذلك كالبعث والحشر والنشر وسائر الغيبيات ، التى لا مجال للعقل فيها ، ولا أمان له ان خاض بحارها وحده ، وذلك فى حد ذاته احترام من الاسلام الحنيف للعقل الانسانى الضعيف ، ورغم ادعاء البعض أن مالا يدركه العقل لا وجود له . وهم ضلال وفيه تجاوز وتكليف للعقل بما لا يطاق ، فان الاسلام كرم العقل واحترمه ، وكلفه بما يطيقه فقط ، ورفع عنه الحرج فى غير ما يطيق .

---

(١) تم ... فى قسم التفسير بكلية أصول الدين القاهرة لرسالة ماجستير فى موضوع " العقل ومكانته فى القرآن الكريم " وأتمنى للزميل التوفيق فى بحثه .

(٢) سورة يوسف الاية ١٠٩ (٣) سورة الأنعام الآية ٦٥

(٤) سورة الأنعام الآية ٣٢ (٥) سورة العنكبوت الاية ٤٣

وذلك فرق جوهرى بين نظرة القرآن الكريم للعقل ، ونظرة غيره من الكتب التى يدعى أصحابها أنها سماوية ، وهو أيضا فرق جوهرى بين احترام القرآن الكريم للعقل الانسانى وبين تلك النظريات الرعناء ، التى تصور العقل الانسانى على أنه لانهائى فى كل شىء ٠

فى قدراته ، فى ذاته ، فى سلطانه ، فى قوانينه واحترامه ٠

حتى لتأن العقل خلق نفسه ـ تعالى الله عن قولهم ـ فمنحها أعلى صفات الكمال ، التى لا توهب لأحد سواه ، ولا يوصف بها غيره ، وهذا العقل لو نظروا له فى حد ذاته ، لأدركوا أن مجرد التهاب الغشاء المبطن للعقل ـ المخ ـ يذهب به ، فضلا عن كل ما يحتويه من معلومات ، ولو بحثوا فيه من حيث معلوماته لأدركوا أنها قابلة للتغيير ، غير ثابتة ، ويكفى أنه اذا نامت القوى الارادية فى الانسان واستيقظت اللاارادية ، فان العقل بكل جبروته يعجز عن السيطرة عليها ويظل فى ضعف تام ، يفرط فى معلوماته ، وتتسرب منه كل أسراره ، فأين ذلك العقل ، بل أين سلطانه ؟ الذى وهبوه له دون مقومات أصيلة ٠ بيد أن القرآن الكريم ، احترم العقل وقدره ، دون افراط باسباغ ما ليس له عليه أو تفريط فى جزء من امكانياته ، تحت أى سبب من الأسباب ، فحق للعقل أن يحافظ على الاسلام وحق عليه أن يؤب الى رشده ، الذى لم يبلغه الا فى رحاب الاسلام ، وتحت ظلاله الوارقة ٠ (١)

---

(١) راجع فى ذلك الآيات القرآنية التى تحدثت عن العقل الانسانى وأنواعه واقرأ أقوال المفسرين فيها ٠

(السنة النبوية تؤاخى بين الدين والعقل)

جاءت السنة النبوية مشيدة بالعقل الانسانى ، منوهة الى منزلته الرفيعة مما يستحق أن نفرد له الحديث عن بعض ما جاء فى السنة النبوية ، على سبيل المثال ، قال عليه السلام :

" خير ما اكتسب العبد ، فضل عقل يهدى صاحبه الى هدى ، ويرده عن ردى ، وما تم ايمان عبد ولا استقام دينه حتى يكمل عقله " .

وقال عليه الصلاة والسلام :

" لكل شىء دعامة ، ودعامة المؤمن عقله " وقال عليه السلام " لايتم للرجل حسن خلقه حتى يتم له عقله " .

وقال عليه السلام :

" ان الرجل لينطلق الى المسجد فيصلى ، وصلاته لاتعدل جناح بعوضة وان الرجل ليأتى فيصلى وصلاته تعدل جبل أحد ، اذا كان أحسنهما عقلا ، وقيل وكيف يكون أحسنهما عقلا ؟ قال النبى صلى الله عليه وسلم ، أورعهما عن محارم الله ، وأحرصهما على أسباب الخير "

ولما بالغ الصحابة رضوان الله عليهم فى اجتهاد رجل فى العبادة ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم " كيف عقل الرجل ؟ " قالوا نحدثك عن اجتهاده فى العبادة وأصناف الخير ، وتسألنا عن عقله ؟ قال عليه الصلاة والسلام " ان الاحمق يصيب بجهله أكثر من فجور الفاجر وانما يرتفع العباد غدا فى الدرجات الزلفى من ربهم على قدر عقولهم "

" وقال عليه السلام " لكل شىء مطية ، ومطية المرء العقل ، وأحسنكم جملا له ومعرفة بالحجة أفضلكم عقلا " (١)

---

(١) قال المحققون ان هذه الاحاديث من الموضوعات ، وانما ذكرتها ليعرفها القارىء حتى لا يظنها صحيحة وليست كذلك .

وقال عليه السلام :

" ان الله تعالى قسم العقل أشتاتا بين عباده ، فان الرجلين يستوى علمهما وبرهما وصومهما وصلاتهما ، ولكنهما يتفاوتان فى العقل ، كالذرة فى جنب أحد " ويقول صلى الله عليه وسلم :

" اللهم اهدنى لما اختلفوا فيه من الحق باذنك ، انك تهدى من تشاء الى صراط مستقيم " (١)

وجاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال :

يارسول الله ، علمنى غرائب العلم .

قال الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما ستعطى فى أصل العلم ورأس العلم حتى تعرف غرائبه ؟

قال الرجل : وما أصل العلم ورأس العلم ؟ قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

" هل عرفت الله ؟ (٢)

من جماع هذه الأحاديث وغيرها ، يدرك المرء العاقل قيمة العقل فى نظر الاسلام ، سواء فى الكتاب الكريم أو السنة النبوية المطهرة ، وأقوال الصحابة وآثار التابعين ، وهو ماعجزت كل الديانات التى ادعت نسبتها الى السماء أن تؤكده أو تبحث فيه ، ان لم تكن غبنته وذهبت به .

ومن هنا فقد تأكد لكل ناظر ، موقف القرآن الكريم والسنة المطهرة من العقل واحترامه وتآخيه الواضح للدين ، تمثل ذلك جليا فى كل القضايا التى عرضها الدين الاسلامى فى القرآن والسنة ، حين يأتيان بالدليل بجوار المقدمات ، والبراهين بجانب المسلمات ، وكل قضاياه فى ذلك سواء .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى كتاب صلاة المسافرين ، باب صلات النبى صلى الله عليه وسلم ودعائه بالليل .

(٢) تنزيه الشريعة المرفوعة ج١ ص٢٧٧ واحياء علوم الدين ج١ ص١٠٩ ط الشعب . قال الحافظ العراقى . أخرجه ابن النسفى وأبو نعيم فى كتابى الرياضة لهما وابن عبد البر من حديث عبد الله بن المسور . مرسلا وهو ضعيف جدا ، ولكننا نأخذ به للاسترشاد لا للاعتقاد .

حتى فيما يتعلق بالله تعالى وصفاته ، نرى القرآن الكريم ، يعطى الدليل مع المقدمة ، ولم يصادر على العقل حيث " قص علينا من صفات الله ، ما أذن الله لنا ، أو ما أوجب علينا أن نعلم ، لكن لم يطلب التسليم به لمجرد أنه جاء بحكايته ولكنه أقام الدعوى وبرهن ، وحكى مذاهب المخالفين وكرّ عليها بالحجة وخاطب العقل ، واستنهض الفكر ، وعرض نظام الأكوان وما فيها من الاحكام والاتقان على أنظار العقول ، وطالبها بالامعان فيها لتصل بذلك الى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا اليه ، حتى فى سياق قصص أحوال السابقين " (١)

وظل الحال على ذلك ردحا من الزمان ، هو مدة حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكانت آيات القرآن تأتى موضحة المؤاخاة فى كافة صورها ، الا من باب أن الدين مُلهِم والعقل مُلهَم . الدين تكاليف والعقل قابل لها ، الدين تنزيل من الله العليم الخبير والعقل ملكة يهبها الله العليم الخبير .

استقرت المؤاخاة بهذا المفهوم ، بين الدين والعقل ، فرقع علم الكلام فى كلأطيب وبين أناس كثير يتنسم أعابير الأمل ، ويستنشق طيب العطر ، ولم يوجد فى تلك المدة ، سائل يبحث عن علم الكلام ، علم تقرير العقيدة ، لأنه يتكرر بينهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم باعتباره الموحى اليه ، المنزل عليه القرآن الكريم ، الذى تمت المؤاخاة على يديه ، ورعاها بفعله وتقريراته .

ومن سرف القول ، أن يظن أحاد الناس ، أن علم الكلام — تقرير العقيدة الايمانية — فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يكن له وجود ، كلا بل انه كان موجودا ، ويتم بطريقة مباشرة على يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وآيات القرآن الكريم تفيض بهذا ، والسنة الصحيحة تؤكده وكان السؤال عنها يتكرر كثيرا ، بحيث لايستثنى من ذلك كل داخل للاسلام ، ولو دخلوا فيه دون قناعة

---

(١) الامام / محمد عبده رسالة التوحيد ص ٢٤

به لخرجوا منه ، ولا يكون دخولهم اليه الا بعد بيان تام عن الخالق العظيم ، واليوم الآخر ، وصدق الرسول ، ولكن الذى لم يكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هو السؤال عن المتشابه ، لا الحديث فى تقرير العقيدة الايمانية وتوضيحها والدفاع عنها ، والا قل لى بربك . هل دخل الناس فى الاسلام دون أن يعرفوه أو يعرفوا على الأقل ذلك الخالق العظيم ، الذى يتجهون اليه وحده بالدعاء ويخصونه بالذكر دون سواه ، وهل سيدخلون فى دين الاسلام دون مناقشة ، وهو دين وحّدهم على عبادة معبود واحد ، وكانوا قبل أهل ألف معبود بين معبود رئيسى ومعبود ثانوى؟، أم قد تركوا معبوداتهم وكانت عليهم أعز من أنفسهم وذويهم ، دون بيان ، وبغير مناقشة ولا معرفة حقيقية للعقيدة التى دعوا اليها ؟

ألم يقل القرآن الكريم ما حكاه من تقرير ومناقشة ، فى [illegible] ت الالهيات

" قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السماوات يدعوكم ليغفر [illegible] ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى قالوا إن أنتم الا بشر مثلنا تريدون أن تصد[وناً] عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين " (١)

وفى مجال اثبات النبوات :

" قالت لهم رسلهم إن نحن الا بشر مثلكم ولكن الله يمنّ على من يشاء من عباده "

وفى مجال اثبات المعجزة :

" وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان الا باذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون " (٢)

وفى مجال اثبات اليوم الآخر :

" فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام ٥ يوم تبدل الأرض غير

---

(١) سورة ابراهيم الآية ١٠

(٢) سورة ابراهيم الآية ١١

الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار · وترى المجرمين يومئذ مقرنين فـــى الأصفاد · سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار · ليجزى الله كل نفـــس ما كسبت ان الله سريع الحساب · هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هـــو اله واحد وليذكر أولوا الألبـــاب ·" (١)

ولا يخرج علم الكلام فى الاسلام بكافة صوره ، من تقرير للعقيدة ودفاع عنهـــا عن ماذكره القـرآن الكريم ، بحال من الأحوال ، وبالتالـى فدعـوى أن علـــم الكلام لم يعـرف الا عند البدايـة الجدليـة للفرق ، لاتسـتقيم على الأقـــــل من وجهـة نظرنـا ·

---

(١) سورة ابراهيم الآيات ٤٧ ــ ٥٢

ب ـ بعد عهد الرسول صلى الله عليه وسلم

كان الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه المرجع عند الاختلاف ، والهادى عند الحيرة ، والنور عند الظلمة ، فما من ظلمة ألقت بها الشبهات الا كان الرسول صلى الله عليه وسلم كاشفا لها ، والقرآن مغنداء القرآن الكريم بما فيه من ذخائر للنفوس ، ورغائب للعقول ، وأدواء للقلوب ، والرسول صلى الله عليه وسلم بما يحمله من هداية الهية ، واصطفاء نورانى ، ومشكاة تتبدد أمامها فيالق الظلمات ،هما معا أضفيا على العقيدة الاسلامية طابع الأمن والاستقرار .

مضى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وأتى بعده الخليفتان ،أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكان حال العقيدة فى خلافتيهما مقارب لما كان فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يشذ فى ذلك شيء ، كما لم يشذ عن ذلك أحد ، سواء فى مجال ما يقرره علماء الاسلام أو فى مجال العقيدة ، وعلم الكلام .

بيد أن هنالك شخصا اختلف فى اسمه ،فقيل عبدالله بن صبيغ ، وقيل صبيغ ابن عسيل ، وهذا الشاذ كان فى خلافة عمر بن الخطاب ، وقد عمل الشاذ على ادخال علم الكلام حلبة الجدل ليفتح على المسلمين بابا كم أوصد ، وكانت عدته لذلك المتشابه فى القرآن من صفات الله وغيرها على رأى من يقول بالمتشابه . (١)

---

(١) هناك خلاف فى وجود المتشابه من عدمه فى القرآن الكريم — مما جعل العلماء يفردون له أبحاثا مستقلة ويكتبون فيه فصولا مطولة ،ولذلك اختلفوا فى تعريف المتشابه على أقوال كثيرة منها :

أ ـ أن المتشابه " هو الخفى الذى لايدرك معناه عقلا ولا نقلا.وهو ما استأثر الله بعلمه . كقيام الساعة والحروف المقطعة فى أوائل السور ،وقد عزا الألوسى هذا الرأى الى السادة الحنفية .

ب ـ أن المتشابه هو : ما استأثر تعالى بعلمه ،كقيام الساعة وخروج الدجّال والحروف المقطعة فى أوائل السور وينسب هذا القول الى أهل السنة على أنه المختار عندهم "

فكان يسأل عن المتشابه ، ولماذا كان متشابها ، ولم يكن له من غرض الا التشويه للعقيدة الجميلة ، التى ترك الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه عليها واحة جميلة ، يستريح فى رحابها القلقون . هادئة يرفل فى نعيمها الظاعنون . يرى القابع فيها اليسر منظورا ، والخير عميما ، والعدل شريعة وتقوى الله غاية . فعز عليه أن ينعم المسلمون بذلك كله ، وقرر الكيد لهم ، بادخال الجدل العقيم الى ساحة واحتهم .

ويقال ان الشاذ دخل الاسلام قسرا ، فأراد أن يكيد له كيدا ، ويمكر به مكرا ، وبلغ عمر الخبر فأمر به ، وسأله عمر عن ما نسب اليه ، وواجهه بشهود الاثبات ، فتأكد عمر من نسبة الفعل لصاحبه ومن هنا راح يضربه بعسيف نخل على رأسه حتى أدماها ، وحتى قال ابن عسيل "حسبك يا أمير المؤمنين ، فقد ذهب والله الذى كنت أجده فى رأسى " .

وكانت تلك الأخيرة فى خلافة عمر بن الخطاب ، وعلم الجميع أن درة عمر وعسيب نخله سوف يقومان أى أعوجاج ، وسوف يواجهان أية محاولة للشذوذ ، أو الخروج على اجماع المسلمين فيما تقرر من أمر العقيدة الايمانية ، والكل فى ذلك سواء .

جـ ـ أن المتشابه هو : ما احتمل أوجها . ويعزى هذا الرأى الى ابن عباس ويجرى عليه أكثر الاصوليين .

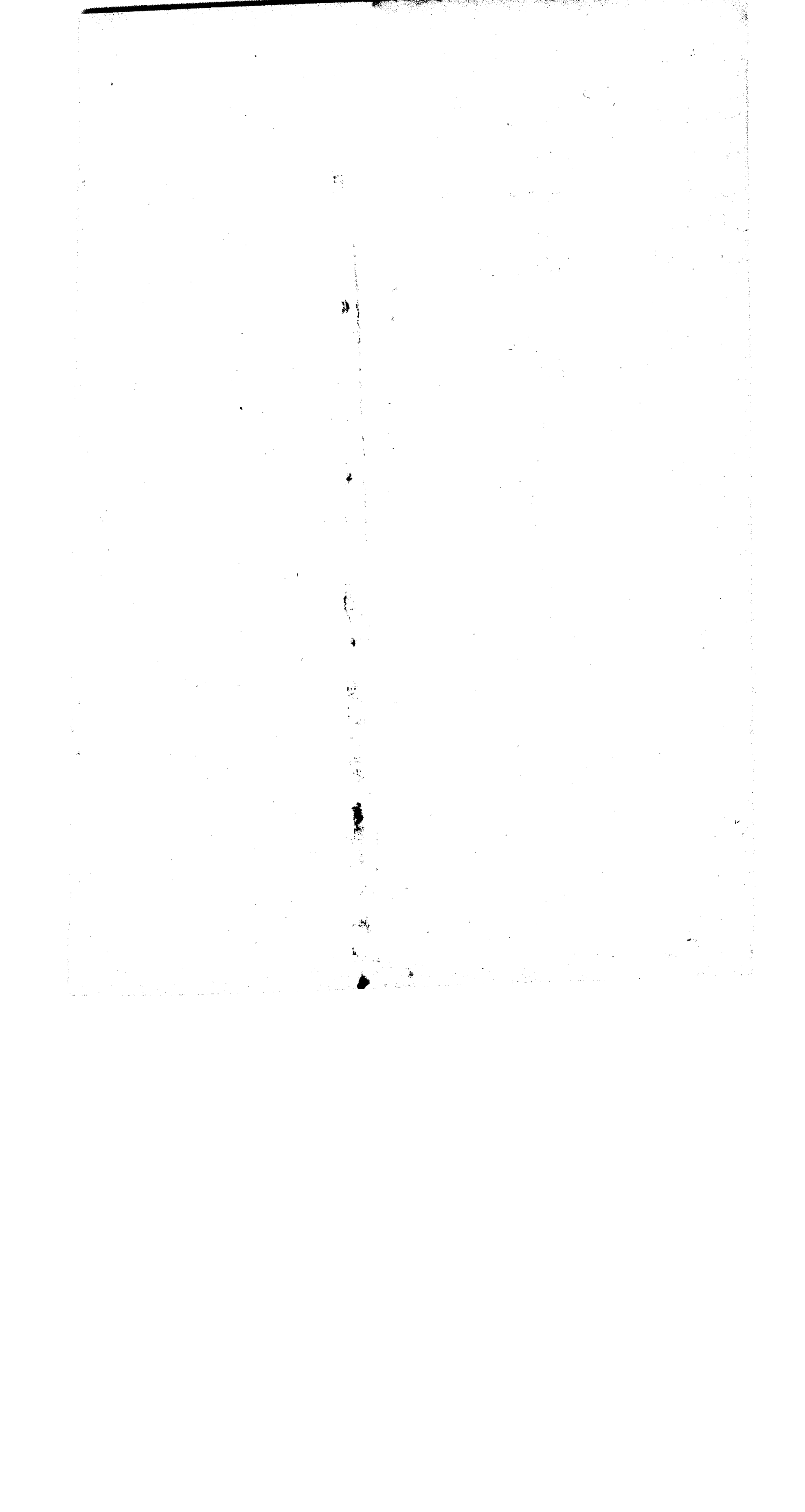
د ـ أن المتشابه هو : الذى لا يستقل بنفسه بل يحتاج الى بيان فتارة يبين بكذا وتارة يبين بكذا لحصول الاختلاف فى تأويله ، ويحكى هذا القول عن الامام أحمد رضى الله عنه .

هـ ـ أن المتشابه هو / الذى لا يحيط العلم بمعناه المطلوب من حيث اللغة الا أن تقترن به أمارة أو قرينة ، ويندرج المشترك فى المتشابه بهذا المعنى وهو منسوب الى امام الحرمين .

وظل الحال على ذلك فترة حكم عمر كلها ، لم يعلم أحد مجادلا أو مشككا ، ولم يعرف أن أحدا خاض في تلك المسائل أو لج فيها وتركه عمر ، أو تركه المسلمون من خلف ظهر عمر ، حتى لم يكن ليطمئن أحد فيحدث نفسه بتلك المتشابهات[1] وما في معناها ، لا للخوف فقط وانما لأن جماعة المسلمين فيهم العلماء والعاملون فيهرع اليهم عند الحاجة وكفى . وفيهم القضاة العادلون ، وسوف يقدمونـه لساحة العدالة .

من هنا دبر أعداء الحق لنصرة الباطل ، وأعدوا العدة للقضاء على رأس الخلافة الاسلامية والتى كانت درته المباركة ، بمثابة السلطة التنفيذية التى لاتخطئ فى تطبيق ما تقره السلطة التشريعية ، دون خوف الا من الظلم ، ولا رقيب الا الله فكان اجماعهم على قتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، والذى استشهد فى ميدان الدفاع عن استمرار العقيدة الاسلامية والعدل الشرعى ، بحيث يعتبر بحق واحدا من شهداء الدولة الاسلامية ، رغم أنه الخليفة العادل ، وصهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحد المبشرين بالجنة .

و — أن المتشابه هو ما كانت دلالته غير راجحة وهو المجمل والمؤول والمشكل ويعزى هذا الرأى للامام الرازى واختاره كثير من المحققين " راجع مناهل العرفان فى علوم القرآن جـ٢ ص ٢٧٠ — ٢٧٨ .



للعقيدة وقواعد علم الكلام فلم يتمكن عثمان رضى الله عنه من القضاء عليها ، وانتهت حياته ، وبدأ عهد من الصراع العنيف فى كل شئ .

وتولى على كرم الله وجهه الخلافة ، وحال المسلمين على أشد الاختلاف ، من مُطَالِبٍ مع بنى أمية بدم ذى النورين ، يرى فى على متهاونا كبيرا غير مطالب بدم عثمان ، الى مؤيد لعلى يرى فى عدم مبايعة معاوية لعلى خيانة كبرى ، وفتحا لباب الصراع الدموى بين المسلمين .

وبدأت تطل على الناس أفكار كانت نائمة ، وتطل من رؤوس فتن كادت تموت ، وان كان التأثير لها قد بدأ بعد أن هبت الفتنة المسعورة ، التى انفلت زمامها حين أنطلقت الأعاصير فى بيداء الأمة ، ففرقت شعابها ، وقد ظن الناس أن آثارها لم تظهر الا بعد مقتل عثمان ابن عفان رضى الله عنه ، وان كان مقتله واحدا من نتائجها ، وبداية لتوزيع الفرق ، وتحديد اتجاهاتها ، وتقنين رؤساء لها وعرفت بالفرق الكلامية .

وما من شك فى أن بنى أمية ، كانت لديهم الرغبة الملحة فى الاختلاف مع على بل هم الذين شجعوا عليها واستحلوا دم المسلمين باسم الدين ، واستباحوا دم صهر رسول الله تحت شعار دم عثمان ، وتحولت جماعتهم الى ميلشيات مسلحة تهدد الآمنين ، وتودى بحياة الصحابة والتابعين ، ولم يكن لعلى بد من الدخول معهم فى معارك طويلة ، أهدرت فيها دماء كان يجب أن تصان وتحقن ، وضاعت فيها أموال كان حقها أن تحفظ ، وأعراض وجبت لها بحكم الاسلام الحصانة ، لكنها هتكت ، وحرمات كان حقها الاحترام انتهكت .

ومن ثَمَّ وقف على بن طالب كرم الله وجهه ، ومعه آل البيت الشريف — عدا عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، ينافحون الأعداء ، ويرجون لكلمة الحق العلو ودين الله الاستمرار ، ولكن هيهات فالآخرون مصممون على الظفر بامامة المسلمين

مهما كان الثمن ، مما حدا بهما الى التصارع والاختلاف الذى نشأت عنه معارك عنيفة ، كان آخرها معركة صفين والتى لجأ فيها معاوية الى التحكيم ، بعد أن فشل فى احراز النصر العسكرى ، وقد نجح معاوية فعلا فى احراز نصر سياسى ، بعد خديعة عمرو بن العاص ، لأبى موسى الأشعرى مما مكن له كسر حلقة جند على وكانت قبل قوية محكمة ، وعلى أنقاضها أقام بناء دولة الأمويين (١) على ما سيأتى بعد

---

(١) راجع كتاب تاريخ الخلفاء الراشدين ، للدكتور / عبد الفتاح شحاته وكذلك كتب الفرق الكلامية ، ومسألة التحكيم .

اذن بدأت الآراء تتجمع ، والأفكار تترتب ، وتجد من يصوغها ، واختلف الفريقان فريق على كرم الله وجهه ، وفريق معاوية الذى بذل جهودا منسقة لانزال الهزيمة لعلى كرم الله وجهه ، وبدأ فى اعداد جيش مسلح ينازل به عليا ، كما بدأ فى تهيئة جو الخلاف ، واتاحة الفرصة لانتشار الأفكار الدخيلة ·

من هنا بدأ التحرك ضد الاسلام يتجمع ، ويعلن رأيه فى شكل تساؤلات مطروحة ، تفرضها ظروف البلاد المفتوحة وجاء ذلك من الذين وجدوا فى البيئة الاسلامية مرتعا خصيبا ، وبذورا صالحة ـ فى ذلك الوقت ـ للاستنبات ، وأرضا معدة لذلك ، فبدأت المزايدات فى علم تقرير العقيدة ، وبدأ التحول به من علم يقرر العقيدة الدينية ، الى علم يدعم وجهات النظر السياسية ، وان لم يدم الحال على ذلك طويلا ، ولكنه فتح الباب لنشأة الفرق الكلامية فى الاسلام ·

وبعد موقعة صفين جاءت قضية التحكيم بين على ومعاوية ، ولم يلجأ اليها بنو أمية إلا حين انتصر على وجنده،(1) وذلك بحيلة لجأوا اليها ، فرفعوا المصاحف على أسنة الرماح ، ولم يكن فى جند على من يفطن لتلك الخدعة ، بل أن قادة جند على ، أجبروا عليا على قبول التحكيم ، رغم أنه علم الخدعة من أول أمرها ونبه اليها ولكن ماذا يفعل الخطر ؟!

وحانت لحظة أختيار الممثلين عن المتخاصمين ـ الحكمين ، واختار على عبدالله بن عباس الا أن جند على فرضوا عليه قبول أبى موسى الأشعرى بدلا من عبدالله بن عباس ، رغم أن أبا موسى لم تكن لديه الملكة السياسية الواسعة ، وتجربته فى تلك قليلة ، ولذا نجد أن عمرو بن العاص الذى أختير ممثلا لمعاوية ، قد تمكن من تضليل أبى موسى ، والقذف به فى غيهب سياسى كان من أثره ، اندلاع الحرب

(1) لاحت بواكير النصر لعلى وجنده ، وخشى معاوية وجنده من ذلك فلجأوا الى حيلة التحكيم ولولاها لكانت للمعركة نهاية أخرى ولحسم النزاع لصالح على وأوصد الباب أمام الفتن الزاحفة على البيئة الاسلامية ·

بصورة شرسة ، بين جند عليّ ذاته ، وتفرق الكم الهائل منهم بل ومحاربتهم لبعضهم ، أو انضمامهم الى خصوم على ، أو الخروج عليه ، مما كان أثره السلبي السيء الذى انتهى باستشهاد على كرم الله وجهه ، على يد أحد الخارجين عليه وهو عبد الرحمن بن ملجم . (١) وهو أحد الثلاثة الغلاة الذين أتفقوا على قتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص .

وقد أتفق الثلاثة " عبد الرحمن بن عمرو ، والمعروف بابن ملجم المرادى حلفا والبرك بن عبد الله التميمى ، وعمر بن بكر التميمى ، فقال ابن ملجم — وكان من أهل مصر — أنا أكفيكم على بن ابى طالب ، وقال البرك ، أنا أكفيكم معاوية ، وقال عمرو بن بكر ، وأنا أكفيكم عمرو بن العاص ، تعاهدوا وتواثقوا بالله أن لا ينكص رجل منهم عن صاحبه الذى توجه اليه حتى يقتله أو يموت دونه " ....

فلما خرج على جعل ينهض الناس من النوم الى الصلاة ، ويقول الصلاة الصلاة سار اليه شبيب بالسيف فضربه فوقع فى جدار البيت ، فضربه ابن ملجم بالسيف على قرنه فسال دمه على لحيته ، وبقى على يومين وليلة بينهما ، ثم مات فى ليلة اليوم الثانى .... وهكذا استشهد الخليفة الراشد ، أكبر شجعان المسلمين وأبطالهم وأغزرهم علما بالدين وأزهدهم فى الدنيا ونعمائها . (٢)

ولعل قضية التحكيم قد أفرزت جانبا ظل مجهولا ، له أثره القوى العنيف وله سلطانه الكبير فى نفوس مكن لها الخراب ، وحلق فى رحابها الدمار ، ولم تترك عليا ومعاوية فقط كفريقين متصارعين ، وانما أطلت برأسها فرقة أخرى ، تعتبر أول الفرق الكلامية تنظيما ، وأسرعها انتشارا ، وأقواها أثرا تلك هى طائفة الخوارج ، الذين هم فى نظر الغالبية غير مؤمنين ، وفى نظر القلة عصاة وفسقة (٣) وان كانوا فى نظر أنفسهم أهل توحيد ودعاة اسلام وشجرة ايمان .

(١) راجع كتب الفرق الاسلامية ، الملل والنحل ، والسيرة الخاصة بالخلفاء الراشدين
(٢) د / عبد الفتاح شحاته تاريخ الامة العربية دراسات فى عصر الخلفاء جـ٢ ص٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥
(٣) راجع مناهج السنة لابن تيمية ط مطبعة الرياض الاجزاء الاربعة .

(الخــوارج)

وبعد موقعة صفين وبداية قضية التحكيم ، بدأ التذمر حتى أعلن أفراد عن أنفسهم بخروجهم على التحكيم مطلقا ، ورفضوا التحكيم من أساسه ، ولما انتهت المسألة خرجوا على على كرم الله وجهه فى صورة معلنة ، وكذلك على معاوية ، ومن هنا نشأت فكرة الخوارج أو فرقتهم ، وكانوا أول المنشقين المتمردين على جماعة المسلمين ، بل وعملوا على تفريقها بالسيف ، وكانت لهم أفكار سياسية ذات مغذى تسلطى . ولا يبعد ذلك أبدا.لأن بعض قادة جند على ، هم قادة الخوارج بعد الموقعة ، وهم الذين رضوا بوقف القتال رغم أنف على ، ثم هم الذين رغبوا فى التحكيم مجاراة لمعاوية رغم أنف على كذلك ، وأخيرا هم الذين فرضوا أبا موسى على الامام على ليكون ممثلا له رغم احتجاج على عليه ، ثم هم الذين رفضوا النتيجة التى انتهى اليها التحكيم .

بيد أن مالا يمكن التخلص منه ، هو أن نشأة الخوارج فى ظاهرها دينية وأن كانت فى باطنها رغبة سياسية ، خرجت عن حد الاعتدال الى الرعونة ، وكانت التصرفات الهوجاء تسم غالبية أفعالهم ، وكان قادتها قصار النظر فى عواقب الأمور . فأخرجوا الفرقة عن غرضها ، وانقلبت الى فرقة دينية تجادل فى الدين باسم العقيدة وتمزق العقيدة باسم الدين ، وكان لها أمر فى المسائل الثلاث :

١ - حكم مرتكب الكبيرة ، وهل هو كافر أم مؤمن؟ وهل يدخل الجنة أم يخلد فى النار .

٢ - تكفير على ومعاوية .

٣ - مسألة الامامة ، وهل واجبة أم جائزة ، وبالاختيار أم بالتعين ، وركن الاسلام أم لا ؟ ولذلك كله أثره على علم الكلام - من حيث تقرير العقيدة الايمانية (١)

---

(١) راجع التبصير فى الدين ، الفرق بين الفرق ، الملل والنحل للشهرستانى الفصل لابن حزم .

(الشـــيعة)

ما من شك أن لكل فعل رد فعل ، ولو خرجنا على قوانين علم الطبيعة فان وجود الخوارج بتفكيرهم الامام على ومعاوية ، جعل أتباع على ينظرون اليه نظرة أخرى ، فأحدث الخوارج انشقاقا كبيرا وجرحا غائرا هات الالتئام على جانبيه ، وكان لابــد من رد فعل لهذا الاتجاه الخوارجى ، فجاءت الشيعة الذين رأوا فى الامام علـى أنه مظلوم تجب نصرته ، مهزوم يجب معاونته من آل بيت النبـوة فهو أبن عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحبه ، وزوج كريمته السيدة فاطمة الزهراء ، ووالد حفيـدى الرسول وسبيطه "الحسن والحسين " وهو أول صبى أسلم فى الله وأول بطل نـام على فراش رسول الله ليلة الهجرة ، والأمين الذى ولاه رسول الله صلى الله عليـــه وسلم على الآمانات ليردها الى أصحابها وقد اعتزم الرسول الهجرة .

وليست هذه فحسب ، بل ان هنالك فضائل عديدة ، ومكرمات يعجز عنهـــا الحصر ، وهذه كلها ترفع مكانة على بين أصحابه ، وتعليه على أقرانه ، يتجـذب حوله الأحباب والمريدين ، ومن هنا انضم اليه كرم الله وجهه جند كثيرون وأشـياع وّليهون ، ناصروه بكل ما وسعهم من جهد ، ودافعوا عنه بكل ما تمكنوا اليه مـــن سبيل ، وساروا على هذا الدرب مع على وآله . وقد أعلنوا عن مبادئ لهم تقوم عليها دعوتهم ، وتمثل صلب فرقتهم ، وكان علم الكلام ميدانا رحبا بثوا فيه شجونهم واستثمروا أمانيهم ، وناضلوا به خصومهم ، من أجل تحقيق هدف النصر العزيز . لعلهم يجدون فيه عزاء عن ما فقدوه بالسيف ، أو تحت سلطان الخديعة ، أو تفرق جندهم بين مؤيدين ومعارضين ، مما تذكره كتب الفرق ، وتطيل الحديث فيه (١) . ولسنا بصدد تعداد الفرق الكلامية ، ولكنا سنذكر أشهر من لهم دور فى علـــم الكلام ، لضـيق المقام .

(١) راجع التبصير فى الدين . للاسفراينى .

للاعتزال أكثر من دلالة ، وأبعد من مفهوم ، باعتباره لفظا له معنى أو مدلول بعيدا عن المفهوم الاصطلاحي ، أو اطلاق الخصوم ، ويعني به الابتعاد عـــن دائرة لاتندفع النفس اليها ، قال صاحب لسان العرب ما نصه في قوله تعالى :

" فإن لم تؤمنوا بي فاعتزلون"، أراد ان لم تؤمنوا بي فلا تكونوا عليّ ولا معي" (١)

والاعتزال بهذا المعنى أمر محمود ، حيث يبتعد بالنفس عن ما لا يرغب فيـــه الشرع أو يدفع اليه ، وهو بهذا المعنى قديم في الأرض معها ، فأحدا بني آدم اعتزل الوقوع في أخيه ، عندما صارحه الأول برغبته في إراقة دمه ، وحكاه القـــرآن الكريم في قوله تعالى : " لئن بسطت اليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي اليـــك لأقتلك اني أخاف الله رب العالمين " (٢) .

ولابد أن هذا المفهوم قد عاش في أفهام أناس كثيرين ، خاصة من أتبـــاع الرسل ، الذين يلجأون الى الابتعاد عن كل مظاهر الترف الدنيوي ، قانعيـــن بأن ما اعده الله للمتقين خير وأبقى ، ومارسه أصحاب رسول الله صلى الله عليـــه وسلم ، في دقة ويسر ، حتى عرفوا باسم الزهاد .

الا أن المفهوم الاصطلاحي هو الذي يحدد لنا بدقة ووضوح المعنى الـــذي اتفق عليه أصحاب الفن أثناء الحديث عن هذا الجانب من الفرق الكلامية ، غيـــر أننا لانجد الدلالة الاصطلاحية محل اتفاق بين الباحثين ، وانما اتخذت تسميات شتى وتركيبات متعددة ، منها ما هو راجع الى المعتزلة أنفسهم ومن تسميتهـــم لذاتهم ، ومنها ما هو راجع الى أقوال الخصوم عنهم ، ومنها ما هو راجع الـــى

---

(١) جمال الدين ، محمد بن مكرم الانصاري ، ابن منظور لسان العرب جـ١٣ ، ص ٦٧ الدار المصرية للتأليف والترجمة .

(٢) سورة المائدة الآية ٢٨ وراجع أقوال المفسرين في الآيات لتعرف القصة كاملة .

اطلاق دينى ، أو ناشئ عن رأى سياسى (١) ، ولكن تبقى فرقة المعتزلة بأتجاهها العقلى ومحصولها الفكرى فى الجانب العقدى .

(منهجهم)

لم تقم المعتزلة — كفرقة تجادل بالدين — على غير هدى ، بل كان لهم منهج محدد فى تناول القضايا التى تعرضوا لها أو عالجوها ، منهج يعتمد على العقل بكل ما وسعه ، مع احترام للنص متى ثبتت سلامته ، وصحت نسبته ، هذا من ناحية السنة المطهرة ، أما من ناحية القرآن الكريم ، فلم يرفضوا نصا منه لأنه قطعى الثبوت ، ولم يجادلوا فى محكم ، لأنه قطعى الدلالة ، انما كانت كل اجتهاداتهم فى مجال المتشابه فقط ، عند من يقول بالمتشابه .

وهم " لم يخالفوا الاجماع فى شئ ، بل عملوا بالمجمع عليه ، فى الصدر الأول من الاسلام . واذا كانوا قد خالفوا شيئا فانما ، المخالف هو — الأقوال المحدثة والمبتدعة وأعتزلوها " (٢) وقد اعتمد المعتزلة على العقل، فبه يشهدون به واليه يحتكمون . فما يقره العقل يجب قبوله والأخذ به ، وما يرفضه فلا مكان له وقد تابعهم مَنْ بعدهم حتى غلوا فى ذلك كثيرا ، ولعل اعتزالهم الحياة العامة أول الأمر ثم الحياة السياسية آخره . جعل جل همهم أن اعتبروا العرفا الوحيد لهم هو سلوكهم فى الأحكام الشرعية ، وتناول الآيات القرآنية ، والآحاديث النبوية .

---

(١) الامام الطبرى تاريخ الرسل والملوك جـ ٤ ص ٥٥٤ ، وما بعدها للتعرف على بعض الاطلاقات والتسميات واسباب الطبرى فيها ، والبداية والنهاية جـ ٧ ص ٢٦٨ ط الفكر العربى ، ونشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام جـ ١ — والملل والنحل للشهرستانى جـ ١ ط الحلبى والفَرْق بين الفِرَق للبغدادى والتبصير فى الدين للاسفراينى واعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازى .

(٢) احمد بن يحيى ابن المرتضى " المنية والأمل فى شرح كتاب الملل والنحل تحقيق د / النشار ط دار المطبوعات الجامعية بالاسكندرية .

ومن هنا رحلوا بعلم الكلام وقضاياه ، الى ميادين أخرى ، فوضعوا قواعد خاصة بهم ، وسَمُوهَا بالسّمة الكلامية من ناحية ، والملامح الدينية من ناحية أخرى ، والناظر اليها يدرك ذلك بوضوح ، فى مدلولها وسبب الاطلاق عليها وسميت تلك القواعد باسم " الأصول الخمسة " وهى :

الأصل الاول : التوحيد ·

الأصل الثانى : العدل ·

الأصل الثالث : الوعد والوعيد ·

الأصل الرابع : المنزلة بين المنزلتين ·

الأصل الخامس: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (١)

ولا ريب أنهم كانوا جندا مخلصين ، وسدا قويا منيعا ضد أعداء الدين ، بل ان فرسان المعتزلة خرجوا الى ميدان الخصم فتسلحوا بسلاحه ، حين تعلموا الفلسفة اليونانية والمنطق الارسطى ، ليدافعوا بهما عن الاسلام ، ضد خصومه الذين جعلوهما سلاحهم يرفعونه فى وجه جند الاسلام ، كلما عنّ لهم ذلك ، أو عجزوا عن وقع أولته ومنازلته ·

ومن هنا فان القول الوارد بمنعة المعتزلة للاسلام ، وأنهم كانوا فى فترة معينة حصنا منيعا له ، أمر مسلم عند كثير من الباحثين ، وظل اتجاههم العقلى قويا حتى بين من ناوءوهم ، وكانت لهم جولات وصولات كشفت عن قوة شكيمتهم ومضاء عزيمتهم ، بل وكانت أولتهم العقلية جديرة بالاحترام ، اللهم الا بعض من ادعوا الاعتزال ، وخرجوا فى أبحاثهم على منهجه وان كانوا قد عدّوا عليه ·

---

(١) القاضى عبدالجبار بن احمد المعتزلى ، ألف فى الأصول الخمسة وشرحها تحت اسم شرح الأصول الخمسة وقام بتحقيقها د / عبدالكريم عثمان مطبعة مصر الطبعة الأولى ، وكذلك تناولها القاضى عبدالجبار فى كتابه المغنى ·

بيد أن هنالك بعض الكتابات التى تقلل من شأنهم — المعتزلة الأوائل والأواخر — ويحسبون كل ادعاء عليهم ، ويرمونهم جميعا بالكفر والخروج على ملة المسلمين ، ويجعلون مصادرهم غير اسلامية وحججهم أنه قد " أثبت كثير من المحققين بأن المعتزلة استمدوا أفكارهم من مصادر غير اسلامية ، باتصالهم بكتب الفلاسفة وأهل الكلام ، من اليونان ونحوهم " (١) مع أن أهل اليونان لم يعرفوا الكلام ، وليس هذا فقط بل ان من حججهم أن المعتزلة لم يتركوا " أصلا من أصول العقيدة الا خاضوا فيه بعقولهم ، وأحدثوا فيه مقولات فلسفية وكلامية تخرجه عن الخط الشرعى ، الذى جاءت به الأنبياء ، وقد شملت تحريفاتهم كل مسائل العقيدة ، وقضايا الغيب والشهادة " (٢)

ومن حججهم أيضا التى تعتبر بمثابة النتيجة عندهم " أن فرقة المعتزلة — بحق — هى المرآة الصادقة للاتجاهات العقلية المنحرفة القديمة والحديثة " (٣) .

ولولا معرفتى السابقة بصاحب الرأى السالف الذكر ، وغيرته على دينه ، لقلت أنه يتصيد للقوم أخطاء ، ويبحث عن سقطات ، ولكنها الرغبة الأكيدة والوله الشديد لفكرة السلف والدفاع عنها وان كنت أرى أن السلفية لاتعطى خصومها بالا ولاتعلق لهم على جهد .

وأيا كان الأمر فان صاحب الرأى قد شهد للمعتزلة وبأنه كانت لهم " جولة وصولة فى الدفاع عن الاسلام ، والزام بعض خصومه الكافرين — من مجوس ويهود ونصارى ، وصابئة وزنادقة ، وسمنية وغيرهم — الحجة ، وكانت لهم بهذا الصدد مواقف مشهودة فى اقناع الخصوم ، والرد على شبهاتهم ، وايقافهم عند حدودهم واشتهر منهم مجادلون مشاهير فى المناظرات بقوة الحجة والبيان "

---

(١) الشيخ ناصر عبد الكريم العقل — مجلة كلية أصول الدين بالرياض العدد الثانى ص ١٧٠ .

(٢) المرجع السابق ص ١٧٨ (٣) المرجع السابق ص ١٧٩ .

وتكفى هذه الشهادة منه للتدليل على جزء من جهودهم الفكرى ، الذى بذلوه صونا للاسلام وحفاظا على دينه القويم ، ابتغاء وجه رب العالمين ، وقد امتد أثرهم ، وكثر أتباعهم ، ونشط اتباعهم ، ومن يراجع كتب المعتزلة ، ويتأمل اختلافات المتكلمين ، وخلافات الفقهاء يجد للاتجاه الاعتزالى صدى واضحا ، وصورة جلية ، ينبئ عنها الاتجاه العقلى عند هؤلاء ، وفى مؤلفات وبحوث أولئك

وربما امتد الاتجاه الاعتزالى ، ولو بمفهومه اللغوى فى أحضان الزمان وسار معه سيرته ، حتى الوقت الحاضر ، نجد ذلك عند الامام جمال الدين الأفغانى (١) فى نهاية القرن التاسع عشر ، والشيخ الامام محمد عبده خير الله (٢) وتلك اعتزالية متطورة فى كل شئ ، ويزيدها قوة تمسكها بالكتاب والسنة .

وما زال هذا الاتجاه العقلانى يمتد حتى الآن نلمسه عند الشيخ / محمد رشيد رضا ، صاحب تفسير المنار وداره ومؤلفاته فى هذا المجال دليل الأمتداد وان كانت دعواه السلفية (٣) ، وفى تقديرى أنهما لايختلفان كثيرا من ناحية الأصول التى استندوا اليها ، والتعويل على امكانية العقل وتكاليفه.

ونجد كذلك الامام الاكبر الشيخ / محمد مصطفى المراغى ، ينبئ عن ذلك مقالاته المنشورة ، وفتاويه والأحكام التى قررها ، والاتجاه الذى مال اليه ، مما يؤكد أنه اعتزالى المنهج ، سلفى الغرض. والامام الأكبر الشيخ / محمود شلتوت ، الذى برز اتجاهه فى مؤلفاته بشكل واضح ، خاصة فى العقيدية منها ، وكذلك الأصولية ، والفتاوى وتفسير القرآن العظيم ، وكلها حظيت من الشهرة بما يجعلها علما على الشيخ ، كما دل ما فيها على أن الشيخ علم عليها .

---

(١) يظهر ذلك فى كتابه " فى الرد على الدهريين " تحقيق د / أبو ريه مطبعة الكرنك .

(٢) راجع رسالة التوحيد ، الحاشية على شرح العقائد العضدية ، وتفسيره من المنار وأعلام الاسلام محمد عبده د / عثمان أمين ص ٢٥ دائرة المعارف الاسلامية

(٣) راجع الوحى المحمدى ، الوحدة الاسلامية والاخوة الدينية ، شبهات النصارى وحجج الاسلام ومجلة المنار ، تفسير المنار وغيرها من مؤلفاته المشهورة .

واذا ظن أحد أن الاتجاه الاعتزالى قد مات ، فهو واهم[1] لأن الذى يموت اما لا أصل له ولا هدف ومن هنا فلا امتداد ، واما متكلف لايعى ما يدور حوله ولا ما ينطلق بجواره والاتجاه الاعتزالى الأصيل ، الذى امتدحه العلماء ، وأشاد به المفكرون ، سيظل جليا أما الاتجاه الذى قام باسمه ، وحاول اشادة بناء على أكتافه ، فلا شك أنه تهاوى ، وتلك لامحالة حقيقة أمره .

لذا نجد الامام الشيخ محمد متولى الشعراوى ، يستعمل امكانياته العقلية بكل ما وسعه ، ويحاول اثبات أن العقل قرين النقل الصحيح ، وهو بلغته السهلة الصعبة كما يقولون لايخفى على باحث اتجاهه ، ولا مناص من أنه صاحب اتجاه يرتفع بالعقل الى أعلى مكانة [2] .

وكان تعامل الجميع يؤكد قدرتهم على الابانة ، ومواجهة النص بالنظر اليه من خلال موازين عقلية ونقلية معا ، مما كان له أثر طيب فى قبول اتجاههم والانتصار لهم ، بل ان الاحتكاك بين الكلام والفلسفة عندهم كان واضحا ، لدرجة تصل به الى حد الفصل والمواجهة أو الامتزاج أحيانا .

ومن هنا بدأت تظهر بينهما محاور للجدل ، تبين فى جلاء ، أن علم الكلام غير الفلسفة حيث أن علم الكلام يهدف الى تقرير العقيدة الايمانية للمسلمين ، ودفع الشبه عنها ، وتعريف المخلوقين بالخالق العظيم رب العالمين جل وعلا والفلسفة على العموم ، تبحث عن تعريف الناس بالخالق ، والغاية من الخلق ، ومبدأ الانسان ومصيره .

والفلسفة الاسلامية على الخصوص ، كان لها دور بارز فى هذا السبيل ، حتى بدا لكل ناظر أن الجدل بين علمى الكلام والفلسفة له هدف ، ويقوم على قواعد

(1) راجع الاسلام عقيدة وشريعة الفتاوى ، تفسير القرآن العظيم وغيرها من مؤلفاته الكثيرة المتعددة .

(2) راجع كتبه المنشورة ، معجزة القرآن الكريم ، تفسير قصار السور ، ثم استمتع بأحاديثه المسجلة في التفسير من سورة البقرة الى الانعام ، والقضاء والقدر والاسراء والمعراج

تنازع الفلسفة فيها علم الكلام ، وبات من المؤكد ، أن أحدهما يهدف الى السيطرة على هذا المنحى ، ليظفر بالسبق وليؤكد أنه أحق بالبقاء ، مثلا للايمان فهل هو الكلام ، أم الفلسفة ؟

وهكذا نشأت الفرق الكلامية الاسلامية ، وانتشرت ، وتعددت من زمن الأمويين والعباسيين ، وكان بعض الحكام يقربون فرقة على حساب الأخرى ، ويدعمون واحدة ضد الثانية (١) حتى ينشغل رجال الدين بخصوماتهم ، عن الحكام وتصرفاتهم والتى قد لاتتفق مع الدين الاسلامى فى غرض ، وكم ذاق رجال الفرق الويل على أيدى الحكام بحجة أو بأخرى .

وما جلد الامام أحمد بن حنبل — وهو فى ميزان السلفية من هو — الا مظهر من مظاهر انصراف الحكام عن الله ، ومحاولاتهم تحويل علماء الدين الاسلامى عن مهمتهم الى خلافات يذوقون نارها ، وحروب تمزقهم فرقا ، وتجعل جمعهم شتاتا وتبدل أمنهم خوفا ، ويسرهم عسرا ، وان كانت تلك رغبة الحاكم حتى تاريخنا هذا ، نشاهد كم ذاق رجال الدين الاسلامى ، على أيدى الشيوعيين والعلمانيين وأعوانهم ، وكم قطعت جلودهم من السياط ، وكم فتكت بهم وهم فى غياهب السجن العلل والأمراض ، وكم حرموا النوم والطعام ، وأضيرت أسرهم ، ووقع فى غياهب الجب ذووهم وماذلك الا لأنهم يقولون لا اله الا الله ، محمد رسول الله ، ويدينون لله بقرآنه الكريم ولرسوله بسنته المطهرة .

ولا ينسى التاريخ محاكمة أبن رشد ، وهو الشيخ المسن ، وهجمة المغاربة على الغزالى واستباحة احراق كتبه ، وتسلط الشاميين على ابن تيمية ، وادخاله السجن سنوات طوال حتى لقى ربه ، كما يذكر التاريخ الجماعات الموحدة فى مصر

---

(١) فعل ذلك الأمويون والعباسيون ومن أتى بعدهم .

وغيرها في الفترة التي تلت اخراج المستعمر الأجنبي ، ومعداته ، مما يعف القلم عن ذكر ما حدث لهم لشناعته ، وسوء منقلب فاعله ، وما تركه من نتائج سلبية على كل شيء في الوقت الحاضر ، نلمسه نحن الآن .

حتى صار أغلب رجال الدين تملى عليهم الفتاوى فيرددونها ، ولا حول لهم ولا طول ، وانسلخ العالم من زيه المتعارف عليه ، وحلق التقي لحيته التي كان يأنس في جوار رسول الله بها واصطنع الحاكم طوائف له تجادل في الدين باسم الدين ، وهم منه براء ، علمانيون تعليما وتحدثا وكتابة وثقافة وانفتحت لهم أبواب الصحافة التي استطالت على علماء المسلمين الخلص .

وافسحت دور الاعلام صدرها الضيق ، فتربع العلمانيون عليه والشيوعيون معهم ، وكانت النتيجة تحويل الأمة من الأمن الى الخوف ، ومن اليسر الى العسر ، ومن الايمان الى حافة الكفر وجحد الله ، أن بارقة أمل هبت من قريب عهد ، فأتاحت للمصلحين أن يتنفسوا ، وللعلم أن يبحث عن رجاله ، والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون " .

الفصل الثاني

تعريف علم الكلام وموضوعه

(تعريف علم الكلام — علم التوحيد)

اذا كان كل علم يحتاج الى تعريف له ، يحدده أو معرف يدل عليه ، أو قول شارح ينبئ عنه فان علم الكلام لم يخل من ذلك ، فعرفوه بالموضوع وبالحد ، وبالرسم ، بما يحتاج الى بيان .

١ — تعريف بالموضوع :

هو " علم باحث عن الأعراض الذاتية للموجود ، من حيث هو على قاعدة الاسلام " (١) وذلك التعريف يوضح موضوع علم التوحيد ، (علم الكلام) باعتبار أن موضوعه ، هو ذات البارى جل وعلا من حيثيات دينية ، ولما كان العلم هو الذى يبحث فيه ، جاء الأسلوب على سبيل المجاز ، وأنه الباحث ، بينما العلم هو وسيلة البحث أو مادته .

٢ — تعريف بالحد :

عرفه الامام محمد عبده بأنه " العلم الذى يبحث فيه عن وجود الله وما يجب أن يثبت له من صفات ، وما يجوز أن يوصف به ، وما يجب أن ينفى عنه ، وعن الرسل لاثبات رسالتهم ، وما يجب أن يكونوا عليه ، وما يجوز أن ينسب اليهم وما يمتنع أن يلحق بهم " (٢) ويدخل فيه اليوم الآخر ، بما فيه من سمعيات أتى بها الشرع الشريف ، ودلل عليها القرآن الكريم والسنة المطهرة ، باعتبارها مغيبات يجب التصديق بها ، على ما ورد النص به .

٣ — تعريف بالرسم :

" انه البحث عن المعلوم ، من حيث اثبات العقائد الدينية المنسوبة الى دين سيد المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك انما هو بايراد الحجج الدالة على صدقها ، ونفى الشبه الواردة عليها (٣) ولا

---

(١) السيد الشريف الجرجانى التعريفات ص ١٣٧ باب العين .
(٢) الاستاذ الامام محمد عبده رسالة التوحيد ص ٢٢ تحقيق د / ابو رية
(٣) د / على محمد جبر محاضرات فى علم الكلام ص ٩

تخرج بقية التعريفات فى مجموعها عن هذه الثلاثة فى مدلولها ، وان كانت تتخذ كتسميات له ، يعود بعضها الى الغاية ، ويعود البعض الآخر الى المشابهة ، ولذا ستورد بعضها على سبيل المثال .

١ — تعريف الكمال بن الهمام :

علم الكلام هو " معرفة النفس ما عليها من العقائد المنسوبة الى دين الاسلام " (١) وتلك المعرفة التى ينشدها العلامة الكمال ، هى معرفة وجوبية ، يلتزم بها المكلف ليخرج بها عن دائرة التقليد المذموم عند علماء العقيدة الاسلامية .

٢ — تعريف الامام البيضاوى :

قال الشيخ انه " علم يقتدر معه على اثبات العقائد الدينية ، بايراد الحجج عليها ، ودفع الشبه عنها " (٢) والشيخ بهذا قصد قضايا العلم ذاته ، والطرق التى توصل الى اثبات العقيدة الايمانية كما قصد الى التمرين والتدريب عليهما حتى يتمكن مجيدوها من القيام بمهامهم على الوجه الأمثل . وفى تعريفه دفع الى تعلم هذا النوع من العلم ، الذى وقف ضده من وقف ، وقريب من هذا التعريف ما مال اليه الشيخ التفتازانى .

٣ — تعريف الشيخ التفتازانى :

قال عنه " هو العلم بالعقائد الدينية عن الأدلة اليقينية " (٣) ورغم أن الشيخ صاحب رسالة فى علم الكلام ودراية به ، الا أنه أراد أن يشير الى حقيقة العلم ذاته ، وسماه العلم بالعقائد الدينية ... الخ بحيث من يتمكن من هذا اللون يقال عليه متكلم ، كما يطلق على ما يحفظه من علم تمكن منه علم الكلام ، تسمية للشئ بموضوعه ، وتسمية للفاعل بمفعوله وذلك كثير شائع يقال رجل سنى لأنه يعمل بالسنة ، وغير ذلك ، وان لم يكن التعريف من الناحية ذاتها غنيا .

(١) العلامة الكمال بن الهمام الحنفى المسايرة ص ٥
(٢) الامام البيضاوى الطوالع ص ٤
(٣) الامام سعد الدين التفتازانى . المقاصد جـ ١ ص ٥

٤ - تعريف الشيخ الايجي :

قال عضد الدين الايجي انه " علم يقتدر معه على اثبات العقائد الدينية ، بايراد الحجج ودفع الشبه ، والمراد بالعقائد ما يقصد فيه نفس الاعتقاد دون العمل وبالدينية المنسوبة الى دين محمد عليه الصلاة والسلام ، فان الخصم وان خطأنا ، لانخرجه من علماء الكلام (١) وفي هذا التعريف كفاية للمذاهب الكلامية ، وان لم يكن شاملا لكل من موضوع علم الكلام بالحد أو الرسم ، فضلا عن أن فيه تعميما في لفظ ، ما يقصد فيه نفس الاعتقاد ، لأنه في تقديري أن العقيدة لابد لها من تطبيق ، وهو الجانب الشرعي العملي ، ولأنه من المعروف أن العقيدة هي الجانب النظري في الدين ، ومن هنا فان التخلص من العمل لا مسوغ له عندي .

رغم أن " هذا تعريف واضح في شموله لكل المذاهب ، والفرق الكلامية التي انطلقت من النص الديني ، يدل على ذلك قوله فان الخصم - أي خصم المذهب الأشعري الذي يعتنقه الايجي - وان خطأناه لانخرجه من علماء الكلام " (٢)

٥ - تعريف المرحوم الدكتور / سليمان سليمان خميس:

يقول : يطلق التوحيد باطلاقين :

أولا : بالمعنى الشرعي الذي جاء به الاسلام ، وقرره القرآن الكريم في كثير من سوره وآياته أعني افراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته ذاتا وصفات وأفعالا .

ثانيا : بالمعنى الاصطلاحي المدون ، وهو العلم الذي يقتدر معه على اثبات العقائد الدينية بايراد الحجج ودفع الشبه ، أو هو العلم الباحث فيما يجب لله وما يستحيل ، وما يجوز وعن السمعيات . (٣)

ونكتفي بهذا القدر من التعريفات التي وردت في علم الكلام ولعل فيها غنية .

---

(١) - الامام عضد الدين الايجي . المواقف ج = جـ ٣٢
(٢) الدكتور / شوقي ابراهيم على عبدالله - دراسات العقيدة الاسلامية جـ١ ط أولى
(٣) الدكتور / سليمان سليمان خميس محاضرات في العقيدة الطبعة الاولى ص ٨ .

(موضـوع علم الكـــلام)

اذا كان موضوع كل علم هو : " ما يبحث فيه عن عوارضه الذاتية ، كبـــدن الانسان لعلم الطب فانه يبحث فيه عن أحواله من حيث الصحة والمرض ، وكالكلمات لعلم النحو ، فانه يبحث فيه عن أحوالها من حيث الاعراب والبناء " (١)

فقد بات من المؤكد ، أن موضوع علم الكلام ، هو العقيدة الايمانية بشكل عام وفى الدين الاسلامى بشكل خاص ، تقريرا ودفاعا ، لتزول الشبه ، وتعود الأنظار الى محلها السليم من العقيدة الالهية التى هى زمام أمر المرء المسلم فى حياتـــه وبعد مماته ، فى دنياه وآخرتـه .

والبحث فى العقيدة الالهية من الوجهة الدينية السليمة ، أمر محمود ما لـم يتجه بصاحبه الى الغلو أو الشطط ، بغية البحث عن المجهول فى أعماق اللاوجود دون واسطة من وحى أو دين سماء ، والعقيدة الدينية بأجزائها الثلاثة ، تكـوّن موضوع علم الكلام فى الاسلام ، على النحو الذى نوضح طرفا منه فى الجوانب التالية

١ ـ الله سبحانه وتعالى " وتسمى الالهيات :

من حيث ، وجوده تعالى ، وبقائه وقدرته وعلمه وارادته ، وما يجب له مـــن صفات الجلال والكمال والاكرام ، وما يليق بذاته تعالى المقدسة ، ومن حيث مـــا يجب أن ينفى عنه تعالى مما لايليق بذاته المقدسة ، ومن حيث ما يجوز له سبحانه وتعالى ، وما يستحيل فى حقه ، وعلى العموم كل التشبيهات كما يجب له كـــل التنزيهات ، وصفات الجلال والكمال والأفعال . (٢)

٢ ـ الرســل عليهم الصلاة والسلام " وتسمى النبوات " :

من حيث أنهم الصفوة المختارة من خلق الله ، يقول الامام الشهرستانى :

---

(١) التعريفات باب الميم ص ٢١٢ طبعة مصطفى البابى الحلبى .
(٢) هذا ما أكدته الآيات القرآنية فى مثل قوله تعالى " ليس كمثله شئ وهـــو السميع البصير "

" والأنبياء خيرة الله فى خلقه ، وحجة الله على عباده والوسائل اليه ، وأبـــوب رحمته ، وأسباب نعمته ... فكما يصطفيهم من الخلق قولا بالرسالة والنبـــوة ، يصطفيهم من الخلق فعلا بكمال الفطرة ، ونقاء الجوهر ، وصفاء العنصر ، وطيب الأخلاق ، وكرم الأعراق ، فيرقيهم مرتبة مرتبة " (١)

ومن حيث ما يجب لهم من صفات تليق بذواتهم المرسلة ، تبعدهم عـــن التقصير فى أداء رسالاتهم ، ومن حيث ما يجوز فى حقهم ، من مماثلة لأقوامهـــم فيما لاغنى عنه للبدن ، بشرط أن يكون حلالا كالأكل من الحلال ، والسعى فـــى الأرض ، وابتغاء الرزق ، والنكاح ، والمعاملات ، وما به حفظ النفس والديـــن والمال والعقل والعرض ، على أكمل ما يليق بالبشر .

ومن حيث مايستحيل فى حقهم ، مما يؤدى الى نقص فى رسالتهم أو انفضاض الناس من حولهم ، فيستحيل عليهم كل نقص بشرى ، كالكذب والسرقة ، والجرائـم التى يرفضها صحيح الشرع ، ولا يقرها سليم عرف، مما يؤدى الى الاخلال بالرســالة أو نفرة الناس منهم .

٣ — اليوم الآخـــر (السمعيات) :

ذلك اليوم البعيد عن الكيفية ، ولاتدرك منه الحواس كمية ، جاءت بـــه الرسالات ، وبلغ به الأنبياء ، وتحدث عن وصفه المرســلون ، وان اختلفت جهـات الاثبات له وتصويره ، من بعث وحشـر ، ونشـر ، وصراط ، وميزان ، وحـــوض وجنه ونار ، وهو كل ما أخبر به الأنبياء ، وصدقهم فيهم العقلاء ، حتى صـــار الموئل الباقى للعدل الالهى ، والصورة المثالية لدى كافة المظلومين ، والمحراب الهادئ للعابدين .

---

(١) الامام الشهرستانى . نهاية الاقدام فى علم الكلام .

فالمظلوم المؤمن الواثق بعدل الله ، ينتظره ليظفر فيه بعودة حقه اليه الذى سُلب منه فى الدنيا ، فان لم ينله فى دار سلطان الخلائق ، فلا شك ملاقيه حين ترسو سفينة اليوم الآخر عند موقف الحساب ، ومن هنا اذا خرج من الدنيا مظلوما ، ترتسم فرحته على شفتيه يلاقى بها وداعه للدنيا واستقباله للآخرة ، لأنه على يقين من عدل الله ، والآيات القرآنية فى هذا الشأن كثيرة ، والأحاديث النبوية المتتابعة فى وصف السمعيات عديدة ، والعابد منتظر فضل الله عليه ، حين يمتعه بالنظر اليه .

والأمر الاول : الالهيات ، طريق اثباته العقل السليم ، الناظر فى ملكوت الله الواسع الرحيب الذى لا يحده بشر ، ولا يحيط به مخلوق ، وهو طريق النظر فى الكون .

أما الأمر الثانى : النبوات : فله طريقان ، يكمل كل منهما الآخر ، والطريقان هما ، النقل الصحيح ، والعقل الناضج السليم ، ذلك لأن معجزة النبى — أى نبى مرسل من الله — عقلية ، تجادل العقل وتحاوره ، بل وتتحداه ، وتعانده ، والغلبة فيهما للأقوى ، فاذا خضع العقل لسلطان التحدى ، وأدرك أن المعجزة قهرته يوقن بها ، فيسلم بكل ما كان من جنسها ، ويتأكد أن ذلك كله يجريه الله على يد النبى المرسل .

ومن هنا يذعن لها ، ويخر لسلطانها ، فيتلقى عن النبى ما يلقيه الله اليه ، بنفس طيبة ، وعقل مفتوح ، وهذا التلقى اليه هو الطريق النقلى وهو الثانى لاثبات النبوة ، فكأن النبوة تؤخذ بالعقل والنقل معا .

وأما الأمر الثالث : السمعيات : فطريق الوصول اليها هو السمع فقط ، أعنى به النقل ، ولا يتم ذلك الا بعد التصديق بالله وبكل ما يجب له من جلال

وكمال الالهيات ، وبعدها تأتى النبوات ثم تليهما السمعيات ، ولا مجال فيها للعقل من حيث التصديق أو عدمه ، كل ما يمكن للعقل فعله التأمل فيه فقط ، ولا يبحث عن حقيقته أو كيفيته ، لأنه محيط لا يمكن لذوى الألباب أن يصبحوا فيه ، مهما تخيلوا من امكانيات .

ومصدر تلك السمعيات ، هم رسل الله الكرام ، وسفراؤه الى خلقه الذين يجب لهم من الكمال البشرى ، ما يدفع الى التصديق بهم ، ومن النبل الأخلاقى ما يوئ للاندفاع خلفهم ، ولا تعرف الغفلة طريقا تقطعه عليهم ، فيما يبلغونه عن الله ، الى خلقه ويكفى أن الله قال فيهم : " وانهم عندنا لمن المصطفين الأخيار" (١) فهم يبلغون عن الله رسالته الى خلقه ومن تلك الرسالة الايمان بالسمعيات التى هى من مواطن صحة الايمان ، وصحيح الاعتقاد ، فمن صدق بها وأعتقد فيها متبعا ما يرشده اليه الرسول فقد نجا ومن خالف فقد خاب مسعاه وضل مراده .

---

(١) سورة ص الآية ٤٧

(الغايـة من علم الكـلام)

الغاية من علم الكلام هي بسط تعاليم الدين ، بحيث تكون ميسرة لكل طالب وحفظ الدين من سهام الشبهات ، بتقرير العقيدة الاسلامية وتأكيدها في النفوس وبيان أصـولها الثابتـة من الكتاب والسـنة ، ولا يعد والتقرير والتأكيد من أن يكون ذلك ناحية أولى ، تليها المرحلة الثانية ، وهـي الدفاع عـن تلك العقيدة بما يتطلبـه من تسـلح المدافع بأعظم من سـلاح الخصـم ، والعمل على كسب الجولة بالحـق والخيـر والعـدل .

من هنا راح علماء الاسـلام الأوائل في ناحية الكلام ، والمدافعون عـن العقيدة الاسـلامية يأخـذون بالأسـباب ، ويتسـلحون بنفـس سـلاح الخصـم حتى تعلموا المنطق ومسـائله ، واسـهموا فيه بدور بارز ، بل وكان لهم منطـق يميزهم عن غيرهـم (١) وان كان الغرض نفس الغرض ، من بسط ودفاع وتقرير .

ونظـروا الى الخصـم فوجدوه يناقـش باصـطلاحات الفلاسـفة ، خاصـة الفلسـفة اليونانيـة ، بل ويلقـى الشـبهات على المسـلمين من خلالهـا فأمسـكوا بزمام الفلسـفة وتسـلحوا بها على أكمـل وجـه ، وجـدّوا فيها حتـى تمكنوا من دفـع شـبه الملاحـدة ، التي كانت تفـد اليهم ، فـي ثنـايـا أبحاث ميتافيزيقيـة ، باسـم العلم والفلسـفة ، وكانت لهم فلسـفة اسـلاميـة مسـتقلة خاصـة بهم ، أبانت عن جـدة في الأبحاث العقليـة التي تناولوها (٢)

ومن هنا برزت أمامهـم قضـايا عقلية عقدية ، بعيدة عن مألوف لهم به ود ، فتعاملوا معهـا الند للنـد ، وكان لهم فيها مجهود وافر ، أبان عن جـدة

---

(١) راجع جهود المفكرين المسلمين في مواجهة منطق اليونان ، للدكتور / سـعد الدين السيد صالح رسالة دكتوراه بكلية أصول الدين — القاهرة .

(٢) من أمثلة ذلك : فكرة الجوهر الفرد ، الخلق المستمر ، نهاية الكون ، اليوم الاخـر .

عقلية متوقدة ، لم تعهد فى غيرهم حتى أمكن أن توسم بهم ، وسميت تلك الأبحاث بالفلسفة الاسلامية ، وكان علم الكلام ومحاولة الدفاع عنه فرصة احتكاك الكلام والفلسفة ، فى داخل البيئة الاسلامية ، مما أوجد محاور للصراع بين علم الكلام والفلسفة فى البيئة الاسلامية ، مما سنلتفت اليه فيما بعد .

الفصل الثالث

منهج علم الكلام

تمهيـــــد :

بنى علم الكلام فى الاسلام ، على قواعد عقلية مفادها العقل وحده المستفيد من النقل ، قرآنا وسنة ، أما منهج علم الكلام ، فقد هرع أول أمره الى ما بنيـــت عليه قواعده ، وكلما حاول متكلم تقرير شئ فى علم العقيدة ، التمس منه فى انتـاج العقل المتأمل وارد النص ، وظل الحال على ذلك طويلا ، حتى ان فهم المتشابه من القرآن والسنة ، كان مقامه على ذلك المنهج .

غير أنه لما دخلت العلوم العقلية اليونانية الى البيئة الاسلامية ، مترجمــــة جذبت اليها كثيرا من الأنصار ، من هنا عمد المحافظون/الذين عملوا على استمرار العقيدة الاسلامية صافية من كل دخيل/، الى استخدام المناهج العقلية الواردة اليهم ، اذ هى فى الغالب تخضع لقوانين منطقية مقبولة عند العقل .

وكان لابد لعلم الكلام أن يدخل حلبة المنازلة ، وواجبه أن ينهض ليظفـــــر بالفوز فلم يجد بدا من استخدام المنهج العقلى ، بعيدا عن وارد النـــص وأن استعان بـــه ، أما لماذا ؟ فلأنه يصارع من لا يؤمنون بدين ، ولا يعترفون بوحـى ويرفضون الانحناء أمام أى جلال ، مهما كان سلطانه ، اذا لم يكن مداره العقل .

وكان المعتزلة أسبق الناس للأخذ به والأشـاعرة فانهم لم يقفوا بعيدا عنه ، تشهد بذلك مؤلفاتهم المشبعة بالقضايا العقلية والقواعد المنطقية ، وان صـاغوهـا فى صورة اســلامية ابتداء من الامام الأشعرى ، أبى الحسن ، ومن تابعه كالجوينى والغزالى ، وحتى السلفية لم يكونوا بعيدا عن هذا التيـار ، وقد بان ذلك مـــن محاولاتهم المتكررة ، فى اسـتخدام القوانين المنطقية اليونانية ، سواء كان ذلـك فى محاولاتهم اثبات الصانع أو غيره كارسال الرسل واليوم الآخر ، مما هو من صـميم القضـايا الكلاميـــة .

" فمثلا . يستدل متأخروا المتكلمين على اثبات الصانع ، بمقدمات عقلية ، رأوا أنه لايمكن للانسان أن يبرهن على اثبات الصانع الا اذا عرفها ، وأطلقوا على ذلك اسم المطالب السبعة " وهى :

١ ـ ان العالم جواهر وأعراض ، وأن العرض شئ يزيد على الجوهر ، كشأن الحركة مع الجسم .

٢ ـ أن العرض لايقوم بنفسه .

٣ ـ أن العرض لايقبل الانتقال من محل الى آخر .

٤ ـ أن العرض لايكمن فى محله حتى يرد على محله عرض يضاده .

٥ ـ أن العرض لاينفك عن محله .

٦ ـ أن القديم لاينعدم .

٧ ـ أنه ليس هناك حوادث لا أول لها (١)

وراحت تلك المطالب تتعمق كأساس يبنون عليه قواعدهم ، وما ذلك الا لأنهم قسموا العالم المحسوس الى جواهر وأعراض ، ولكل حقيقة ينفرد فيها ، وشغل ذلك كثيرا من كتب المتكلمين على اختلاف اتجاهاتهم ، حتى صار مقدمة لأبحاثهم فى الميتافيزيقا وعلم الكلام على السواء . (٢)

---

(١) الدكتور / محمد عبدالستار نصار . المدرسة السلفية وموقف رجالها من المنطق وعلم الكلام ص٤٨٦ ، ٤٨٧ مطبعة التقدم ،وانظر طريق القرآن فى العقائد للاستاذ محمد احمد العدوى .

(٢) أنظر المواقف ـ المقاصد ـ الشامل فى أصول الدين للجوينى شرح السنوسية الكبرى الجوهرة . وغيرها من كتب الكلام .

(جوانب منهج علم الكلام)

من ثم فان منهج علم الكلام فى الاسلام ، يقوم على جانبين لا محالة :

الجانب الأول :

النص القائم على كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتأمل فى النقل بالعقل ، والدفع للتفكير فى ملكوت الله الواسع ومخلوقاته المتعددة ، بغية الوصول الى تفهم ما للخالق جل وعلا ، من صفات جلال وكمال ، وللعقيدة من هيبة واحترام ، وما تستحقه من خضوع واستلهام .

الجانب الثانى :

العقل القائم على مقدماته ، الخاضعة لسلطان المنطق الانسانى ، سواء كان من قبيل ما أبان عنه علماء اليونان " (١) أو كان من المنطق الذى وضعه علماء الاسلام ، فى مواجهة منطق اليونان ، وسمى منطق الاسلاميين . (٢)

غير أن هذين الجانبين ، يمثلان وجهات نظر المشتغلين بعلم الكلام الاسلامى ، ومن المقرر أن علم الكلام نشأ فى وقت مبكر جدا ، الا أن بعض الباحثين يربطون بين نشأة الفرق وعلم الكلام ، ويجعلون أحدهما سببا فى وجود الآخر ، وما من ريب فى أن هذا الرأى تضعفه أدلة كثيرة ، نوضحها فى حينها .

---

(١) يسمى المنطق الشكلى ، لأنه يهتم بشكل مقدماته دون مطابقتها للواقع ، ويسمى المنطق الارسطى نسبة الى أرسطو مفكر اليونان ، الذى يقال انه وضع قواعد المنطق اليونانى ، ويسمى القديم تمييزا له عن المنطق العلمى الحديث القائم على الاستقراء ، كما يسمى المنطق الصورى ، نسبة الى الصورة أو فرفريوس الصورى ، ومعروف عند علماء اليونان ، وقد ترجم الى اللغة العربية كما ترجم غيره من كتب اليونان .

(٢) راجع جهود المفكرين المسلمين فى مواجهة منطق اليونان ، دكتوراه بكلية أصول الدين القاهرة — د / سعد الدين السيد صالح ، ورسالة دكتوراه / أ . د / محمد عبد الستار نصار المدرسة السلفية وموقف رجالها من علم المنطق والكلام . أصول الدين بالقاهرة .

بقيت نقطة ، هل علم الكلام استقرائي المنهج أم استدلالية ؟ وهل يدخل في باب الأدلة الالزامية أم الاقناعية ؟

والجواب : أن منهج علم الكلام ، ان أُخذ من النقل فهو للمسلم الزامي ، ولغيره اقناعي ، واذا أخذ من غيرهما فهو اقناعي فقط ، أما مسائل علم الكلام ، من ناحية التأليف والتركيب ، أو من ناحية التقرير ، فان هنالك وجهتي نظر ، تختلف الاولى عن الثانية في تناول هذه المسائل منهجيا .

الأولى : المعتزلة ومن تبعهم ، ومنهجهم يقوم على العقل وحده وربما تمسكوا به الى حد الافراط في العقلانية ، ولعل لديهم من الدوافع لذلك ما جعلهم يتمسكون به . ومع العقل يهتدون بالنص .

الثانية : أهل السنة ومن تبعهم ، أشاعرة وماتريدية ، يميلون الى الاتجاه النقلي حتى مجيء الأشعري الذي أستخدم المنهجين معا ، وظل النقلي يمارس نوعا من الضغط القوى على الجانب العقلي ، يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق — رحمه الله — " كان أهل السنة من قبل الأشعري ، لا يعتمدون الا على النقل في أمور الاعتقاد .... فلما أخذ الأشعري في مناضلة المبتدعة بالعقل ، حفاظا للسنة ، جاء أنصار مذهبه من بعده ، يبنون عقائدهم بالعقل تدعيما لها ومنعا لاثارة الشبه حولها .... ثم مارس أتباع الأشعري المنطق (١) وفرقوا بينه وبين العلوم الفلسفية ، وراعوا في استدلالاتهم ، ومناظراتهم قواعده ، وقرروا أن بطلان الدليل لا يؤذن ببطلان المدلول ، الذي يمكن أن يثبت بدليل آخر (٢) فصارت تلك الطريقة بيانية للطريقة الاولى ، وسميت طريقة المتأخرين (٣) ، من أهل السنة .

---

(١) منطق اليونان ، وهو الشكلي كما وضعوا المنطق الاسلامي الاصولي ولعله قصد الثاني .

(٢) هذا ما أكده المنطق الحديث الاستقرائي ، وأبان عنه طريق السبر والتقسيم عند الأصوليين . راجع مناهج البحث د / محمود قاسم .

(٣) الشيخ / مصطفى عبد الرازق . التمهيد في تاريخ الفلسفة ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

(نتائج ما سبق)

الاولى :

أن لعلم الكلام فى الاسلام منهجا مستقلا ، فى تناول مسائله ، وعرض قضاياه "

الثانية :

أن أداة البحث فى علم الكلام ، قد تستخدم فى علوم أخرى ، ولاتكون الرابطة بينهم الا مجرد المصادفة .

الثالثة :

أن علم الكلام بدأ سابقا للفرق الكلامية ، فجعْلها سببا له لا مبرر للقائلين به .

الرابعة :

علم الكلام بدأ منهجه بداية نقلية ، ثم جاء بالعقل تدعيما ، وليس للعقل مجال فى موضوع لا يعرفه ولا يدرك له نهاية ، كالجانب النقلى فى النبوة والغيبى فى السمعيات ، وغيرها مما هو من أبحاث ما وراء الطبيعة ولا يدرك كنه حقيقته العقل .

الباب الثانى

الفلسفة الإسلامية

الفصل الأول : نشأة الفلسفة الاسلامية

الفصل الثانى : تعريف الفلسفة الاسلامية

الفصل الثالث : تسمية الفلسفة الاسلامية

الفصل الرابع : منهج الفلسفة الاسلامية

الفصل الأول

(نشأة الفلسفة الإسلامية)

تمهيـــد :

عند التأريخ للفلسفة ، يبدو أمر بارز الأهمية ، وهو مدى الصعوبة التى تواجه الباحث أثناء سيره فى هذا الدرب ، أما لماذا ؟ فلأن كتابة التاريخ تحتاج الى وثائق تاريخية (١) أما التأريخ ذاته ، فهو عملية معقدة ، كثيرة الخطوات ، قل أن يصل الباحث فيها الى أمر قطعى ، من طريق ميسور .

بيد أنه على الباحث فى الفلسفة الاسلامية ، أن يجعل المصدرين الاساسيين للمسلمين أمامه ، وهما القرآن الكريم والسنة المطهرة ، وينشدها منهما وان اعياه البحث ، وهو بذلك يوفر طاقة مبذولة فى غير طائل ، ويدخر وقتا عزيزا ، ويسير فى طريقه واثقا مطمئنا (٢) لأن المصدرين على أوثق ما تكون الثقة ، بالنسبة لأى باحث منصف ، غير متعصب .

ولأن المتعصبين يرمون المصدرين بالعقم ، ويتهمونهما بعدم الجدوى ، ومن هنا فلا ينظرون اليهما الا عند الاتهام ، فهما فى نظرهم سبب تأخر المسلمين وتفرقهم وتعصبهم ، بل وتخلفهم عن مسايرة ركب الحضارة فضلا عن أن يكونوا قادة فيه ، والحق يقال : أن هؤلاء الباحثين مدفوعون خلف تيار أعمى ، وتقليد تليد وثوة عن عنصرية مذهبية ضيقة الأفق ، أو عنصرية شعوبية ، ونزعة عدوانية غرضهم منها الطعن فى الاسلام والنيل من المسلمين (٣) " والله من ورائهم محيط " (٤) .

---

(١) راجع ما هو التاريخ ؟

(٢) أنظر تعريف القرآن الكريم للحكمة ، واستنباطها من الأحاديث النبوية .

(٣) فعل ذلك ، تنمان ، ورينان ، وغيرهما ، وقد تكفل بالرد عليهم ، فطناء أجلاء أعادوا القطيع الضال الى حقيقة موطنه .

(٤) ســورة البروج الآيــة ٢٠ .

وحال هؤلاء المتعصبين ، كالأعمى الذى يبحث عن جرو أسود ، بين أحضان تيه واسع الأرجاء ، تحت ظلال ليلة مظلمة ، أوكحامل دلو مثقوب ، يدلى بـه فـى جب عميق لينال ماء ، فلا دلوه يخرج الماء ليعرف طعمه ، ولا وفر على نفسـه عناء القاء الدلو وجذبه ، وكلما دفع (عقله) دلوه الى الغوص فى الأعماق ، اندفع الى أعلى ، لانعدام كفاءة الدلو عند محاولة اغراقه فى الجب ، أو العمل علـى انزاله فيه .

ومثل هذين ، ينقضى العمر منهم دون بلوغ الهدف ، أو مقاربته ، فالأعمـى يضنيه البحث ، ويستبد به الجهد ، ولن يجد مأربه ، اللهم الا تنهيدات قليلـة مستعرات ، وعناء لاطائل من ورائه ، وصاحب الدلو تعود أوتاره ممزقة ، أشـلاء متفرقة ، تمزق أمل صاحبها ، وتنزل به أسوأ النكبات ، وربما جرّحت أرجاء الجـب فأنزلت لمائه طينها العكر ، وفضلاتها التى لاتؤخذ الا منها .

وحينئذ يكون لا مناص لهما ، الا اشـهام الجب ، ومقاضاة الظلام ، وكم مـن الأناسى انزلقوا الى هذا الجب ، بغرض الاضرار به ، فغرقوا فيه ، ولفظتهم منابع مياهه ، ورامت فيهم الطيور الجوارح غذاءها والهوام عيشها ، فانقضوا عليهـم يمزقون أجسادهم ، ويوزعونها فى أنحاء المعمورة ، وذلك جزاء الظالمين ، وهـذا ما يميل اليه ، ويعاقب به غالبية المستشرقين ، على اختلاف مشاربهم ، وتنـوع اتجاهاتهم .

استطراد وتنويه

قد يظن الكثيرون ، أن الفلسفة الاسلامية لم تعرف الا بعد دخول الفلسفة اليونانية الى البيئة الاسلامية وبخاصة فى زمن المأمون ، ابان عهد الترجمة وبالتالى يختلفون حولها هل هى أثر للفلسفة اليونانية ، أم هى ابتكار وأصالة ، ولها استقلال وفيها ابداع ؟

وتلك المعركة نشبت منذ وقت طويل ، وما تزال رحاها تدور ، ولايزال الاختلاف على أشده ، والخلاف على أوسعه ، ولكل من الطرفين أنصاره ، كما أن لكل منهما خصومه ، مما يجعلنا نحرر محل النزاع بين المتصارعين .

وفى ظنى أن هناك نقطة لو تأملناها ، لوصل الجميع الى أقوم طريق ، وهى أننا تأكدنا من ورود لفظ الحكمة فى القرآن الكريم ، وفى السنة المطهرة ، وهما المصدر الأساسى للتشريع الاسلامى بكل ما فيه من جلال ومهابة ، وبكل ما حواليه من عقيدة وحكمة وشريعة وأخلاق ، ومن مرادفة مدلول الفلسفة لمدلول الحكمة التى نعنى بها الآن .

واذا ضربنا الأقوال التى تذهب بالفلسفة الاسلامية الى الفراغ ، ورحنا نبحث عن الفلسفة الاسلامية ، فيما امتازت به ، نجد نشأتها ، لأنها امتازت " بموضوعاتها وبحوثها ومسائلها ومعضلاتها ، وبما قدمت لهذه وتلك من حلول فهى تعنى بمشكلة الواحد والتعدد أو الوحدة والكثرة ، وتعالج الصلة بين الله ومخلوقاته " (١) التى كانت مثار جدل طويل بين المتكلمين ، كما أنها تحاول التوفيق بين الدين والوحى من ناحية ، وبينها والعقل من ناحية أخرى ، كما تفعل ذلك بين العقيدة والحكمة ، أو قل بين الدين والفلسفة .

---

(١) الدكتور ابراهيم مدكور — فى الفلسفة الاسلامية منهج وتطبيقه .

كما أنها كشفت كفاية النقل للعقيدة ، اذا كان النقل هو القرآن الكريم أو السنة المطهرة ، أو هما معا ، وأن العقيدة اذا اصطحبت النقل واستنارت بسراج العقل ، تمكنت من النفوس أكثر ، وثبتت فى القلوب أعمق ، وحاورت الخصوم بعنف وصلابة ، ولقد كانت الفلسفة الاسلامية ، منهجا أخذ بنصوص الشرع ومدلولات العقل ، وكان الزمام فى متن الشرع ، والقافلة يقودها الوحى ·

ولعل من المكررات ما فيه دلالة ، من أن الفلسفة اذا سارت مع الوحى ، صار الدين فلسفة ، كما تصبح الفلسفة دينا ، ولذا فان ما تعرضت له الفلسفة الاسلامية من أبحاث ، وقدمت من مناهج ، وعالجت من موضوعات ، هو من وليد البيئة الاسلامية والنبت الحقيقى فيها ، والترجمة الواعية للظروف والملابسات التى أحاطت بها ، حتى أمكن وصفها بأنها فلسفة اسلامية ، دينية روحية ·

ومن الاتهام الصراح ، ما يروق للبعض من وصف الفلسفة الاسلامية ، بأنها فلسفة التقليد ، وأنها امتداد للفكر اليونانى ، فى جانبه النظرى ، بحجة أن البحث الفلسفى فى البيئة الاسلامية ، لم يتم الا عندما تسللت الروح العقلية اليونانية ، فى شكل نسمات تهب على العقول الاسلامية ، فى ثوب ترجمة خفية بدأها بنو أمية ·

ونحن أميل الى مخالفة هذا وأمثاله ، ودليلنا أن الفلسفة الاسلامية شملت الجوانب الفلسفية الكبرى ، التى تعرضت لها أفكار اليونان ، وأضافت اليها ، وزادت عليها الكثير من المشاكل الروحية الدينية الخالصة ، وكانت سجلا هيمن على كل جوانبها ، بل ان بعض الفلاسفة المسلمين ، وقفوا من المشائية والأفلاطونية وغيرهما موقف المهندس الذى يصلح ما عجز عنه غيره ، وبعضهم وقف لها ، يقرعها بالحجة ، ويهدمها بالدليل ، ويقيم غيرها بالبرهان ، سواء كان ذلك تحت اسم الصوفية أو المتكلمين ، أو المفسرين ، أو الأصوليين ، أو غيرهم مما شملته أبحاثهم

بل أنه عند المقابلة نجد أنه في البحوث الكلامية والصوفية ، مذاهب ونظـــريات لاتقل دقة وعمقا عن مذاهب المشائين ، ونظرياتهم ، وقد ألتقت وجها لوجه فـي فلسفة أرسطو وكان بينهما صراع ونضال ، ومن هذا الصراع نشأت مميزات التفكيـــر الاسلامى الخاصـــة ٠

وأخيرا فى مبادئ التشريع وأصول الفقه ، تحاليل منطقية وقواعد منهجيـــة تحمل شارة فلسفية واضحة ، بل ربما وجدنا فى ثناياها ما يقرب كل القرب مـــــن قواعد مناهج البحث الحديثة (١) وليس أدل على ذلك ، من تأثر ديكارت الواضح بالغزالى فى منهجه الشكى ونهايته ، وان كانت اللمسات الأخيرة عند ديكارت ، تخالف ما عند الغزالى مخالفة اللاحق واستفادته من تجارب السابق (٢) ٠

---

(١) الدكتور / ابراهيم مدكور ٠ فى الفلسفة الاسلامية منهجه وتطبيقه ص ١٧

(٢) راجع المنقذ من الضلال فى مجال الشك ، وقارنه بتأملات ديكارت ، وكذلك مقال فى المنهج ترجمة د / الحضرى ٠

(التاريخ للنشأة)

التأريخ للنشأة تواجهه صعوبات متعددة منها :

١ — هل تحدد نشأتها باعتبار الرجال القائمين بها فى الزمن الاسلامى ؟
٢ — هل نحددها باعتبار المصدر الذى أخذت عنه أو منه ؟
٣ — هل نحددها باعتبار الموضوعات التى أدلت بدلوها فيها ، والتى هى عصب الفلسفة الاسلامية ؟

وتحديد نشأتها بالموضوعات ، أو الرجال ، خبط فى مجاهل لاقبل لنا بها وتطويل للبحث لاشأن به ، والأولى تحديد نشأتها من خلال مصدرها .

أما المصدر ، فان المطالع لآيات القرآن الكريم ،تواجهه آيات عدة فى هذا الشأن تخاطب العقل ، وتأمره أن يتعمق فى كل شئ ، ليصل الى خالقه لا باعتبار ذاته ، وانما باعتبار صفاته ، وكمالاته ، وهذا ما يعرف بالتفلسف ،لأن التفلسف " هو البحث عن حقائق الأشياء ، وأصولها وعلاقة بعضها ببعض ،وهذا العمل لايخلو منه أى انسان الا من شغلته لذته وشهوته عن البحث والتفكير ، أو كان ناقص العقل بعيدا عن التأمل والنظر " (١)

ونبه القرآن الكريم ،على أن معطلى عقولهم ، لايتبعون الا الظن ولايسيرون الا خلف أهوائهم ، التى لا تستقر على شاطئ ، ولا تخضع لبحث ، ولا تهتدى الى تفكير سليم " ان هم الا كالأنعام بل هم أضل " وعاب عليهم انقيادهم الأعمى وانصياعهم المطلق لما يمليه عليهم غيرهم ، وليس معصوما ، وأوجب عليهم التأمل بكل ما يملكون ، وحدد لهم مصادر المعرفة ووسائلها .

---

(١) الدكتور / عوض الله جاد حجازى ، وآخر ،فى تاريخ الفلسفة اليونانية ص٦ الطبعة الثانية .

مصادرها منبثة فى الكائنات ، وأصولها راسخة فى الأذهان ، ووسائلها ماثلة فى القلوب والحواس ، والالهام ، ومن ثم وجب عليهم العمل بكل ما فى طاقاتهم ، وأن يجتهدوا قدر تلك الطاقات ، وصولا للهدف الأسمى ، والأمل الأكيد ، من ناحية المعرفة الكاملة ، خاصة وأن آيات القرآن الكريم ، قد أمرت الانسان العاقل المفكر ، أن ينعم النظر ويطيله ، فى رحاب الكون الواسع الرحيب وأن يتأمل فى مظاهر الكون وظواهر الوجود ، بل وهيآت الكون كله ليكون فى مرق تفكير الانسان حتى صار كأنه قد أمر به .

ثم انه قد سبق القول بأن الحكمة قد رتعت قبل الاسلام فى أرض العرب ، وان كانت أبحاثها الدقيقة ذات المفهوم المحدد ، لم تعرف الا فى الاسلام ، ومن خلال آيات الذكر الحكيم نفسه ، من هنا فانه يمكن القول بأن تاريخ نشأة الفلسفة الاسلامية (بالمعنى الذى انتهينا اليه) يرجع الى بداية عهد النبوة مع أول نازل من القرآن الكريم ، على معنى أن ما كان من وحى فهو الى النبوة والرسالة منسوب . وما كان من فهم خاص للصحابة ، ولو فى معانى التنزيل — فهو من باب الحكمة القرآنية ، والفلسفة الاسلامية ، يدخل فى ذلك التأمل ، والتدبر ، والتعقل والتعلم ، بل اننا نلمس فى آيات القرآن الكريم ، الدعوة القوية لهذا اللون من التفكير العقلى الحر ، فى قوله تعالى " وفى أنفسكم أفلا تبصرون " وفى السماء رزقكم وما توعدون "(١)

فقد دفعت الآيات القرآنية ، القدرات العقلية الاسلامية ، الى ميدان التفكير العقلى فى أيسر الأمور وأعقدها ، الا وهو النفس فى فهمها وكنهها ومراتبها ودرجاتها ، ثم ألوانها ودقائق أحوالها ، حتى تخرج العقلية المسلمة من ذلك الامتحان مؤهلة لحملة الدعوة الاسلامية فى يسر وأمان ، ثم ان البحث فى النفس

---

(١) سورة الذاريات ، الآيتان ٢١ ، ٢٢

وعملية الربط بين النفس وما لها من سلطان على الجسم أو تأثير فيه ، ثم ما بينها وبين الروح ، وهل هما مترادفان ، أم غير ذلك ، وهل تقع دائرة الاختلاف بينهما أم يتفقان ، خاصة وقد ورد لفظ الروح فى القرآن الكريم الكثيرا ، وتحت معان عدة

ثم ان الآية بجانب أنها دعوة هادئة للتفكير ، فهى أيضا دعوة هادفة للتأمل والتفلسف والتقدير ، حيث قد خاطبت فى المرء كل ملكاته القوية ، من نفس وبصر وبصيرة حتى تعود فى النهاية النتيجة المرجوة من ذلك كله ، وهى الوصول الى العليم الخبير ، اذ بعد أن تخاطب الآية الانسان من داخله ، تعيده مرة أخرى الى دائرة أوسع من نفسه ، واشمل من ذاته ، ألا وهى دائرة الرزق ، حيث تلقنه القناعة التى يعجز الكثيرون عن ايصالها للنفس ، ألا وهى ضمان الخالق القوى الأكيد للرزق ، ولذا نرى الآية تحدثت عن الرزق ، من ناحية العلو والسماء تأكيدا على أن مانحه الأعلى ليس كمثله شئ ، بالتالى لا يتمكن من حجب الرزق أحد أبدا ، مادام واهبه قد قدَّره .

بيد أن المتجه نحو الفهم الدقيق للآية يرى ، أنها تقبض على زمام العقل وتجذبه بغية تعويده على التأمل ، نحو السماء مادام الرزق يأتى من ناحيتها ثم اذا ما وجهته نحو مصدر رزقه ، دفعته الى تأمله — المصدر — بكل ما فى التأمل من معنى ، وما ذلك الا لتدريب العقل المسلم على التفكير الحر المنظم الذى يهدف فى النهاية الى تعريف المرء المكلف بخالقه العظيم مرة أخرى ، وبالتالى فان المرء يكون قد وصل الى معرفة خالقه مرتين ، مرة عن طريق الوحى ، والنقل ومرة ثانية عن طريق العقل بهداية النقل .

ولعل قوله تعالى " قل انظروا ماذا فى السماوات والارض ، وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون " (١) قد أفاد ذلك المعنى الذى نهدف اليه ونؤكده ، بل واثبت بطريق لا يقبل الجدل ، أن الفلسفة الاسلامية اسلامية المنشأ ، والغرض بل والمصدر أيضا ، وبالتالى فالواجب التأكيد عليها ومساندتها .

---

(١) سورة يونس الآية ١٠١

ولعل من ناصبوا الفلسفة الاسلامية العداء ، قد دفعهم الى تلك المواقف ودخولهم فى عديد من الصراعات أنهم ظنوا أن ما فى أبحاث الفلسفة الاسلامية هو نفس ما فى أبحاث الفلسفة اليونانية ، أو الهندية أو اليهودية والمسيحية من مباحث عقيمة ، لاتؤدى فى النهاية الا الى الكفر والضلال ، واستهلاك العمر فيما لايفيد ، وافراغ الملكات من كل معنى نبيل .

كما أنه فى تقديرى قد أشعل الثورة على الفلسفة الاسلامية ، سلوك بعض الفلاسفة أنفسهم ، مثل استهانة ابن سينا بالشرع ، وانزاله الى درجة العقل واخضاعه لحكمه ، ثم تمرده على الشرع ، فيما نسب اليه من قول :

بزجاجتهن قطعت عمرى	وعليهما عولت جميع أمرى
فبذى أدون حكمة	وبذى أزيل هموم صدرى

ومثل هذه المشاعر العدائية ، اذا تمكنت من النفوس تجد لها صدى أبعد مدى من الفعل ذاته ، وأقوى تأثيرا من كل ما عداه ، خاصة اذا كان المردد لها من رجال الدين ، (الفقهاء والمتكلمين) الذين هم محط الرحال ومعقد الآمال ، وموئل الصدق ومرتع دوام الحال ، ثم سيطرة العقل الجمعى فى كثير من الأحوال ، وقياس الناس بالأقوال ، والكذب فى نسبة الأعمال .

ثم ان هناك عاملا آخر له أهميته القصوى فى هذا السبيل ألا وهو النتيجة الحتمية للفلسفة من حيث الأثر ، خاصة وأن كل علم تعقبه نتائجه ، تظهر ايجابا فيزداد الاقبال عليه ، أو سلبا فيتضاءل ذلك الاقبال الى أن يتلاشى ، وربما أستبدل به غيره ، الا الفلسفة فان نتائجها لاتظهر للعامة والخاصة بهذا الشكل اذ هى فهم خاص ، ونتائج محددة تأتى عقبها أسئلة أخرى ، فى محاولة دائمة لمتابعة التطور فى كل شئ ، بل وسبقه ورسم منهجه فى أحيان أخرى .

وما من شك فى أن هذه كلها تشكل عبئا ثقيلا ، على الفلسفة الاسلامية فى كل مناحيها ، بداية من مباحثها الى نتائجها ثم القائمين عليها ، من هنا كان رد الفعل،أن الغالبية العظمى رفضت الفلسفة الاسلامية لأسباب منها :

١ ــ ضيق أفق البعض عن فهمها ، مما جعلهم يرمونها بالتعقيد والغموض ، بل والكفر والخروج على قواعد العقل ، وملكات الفكر .

٢ ــ صعوبة تناول قضاياها بشكل نقلى ، أو وضع أصول ثابتة دائمة لكل قضاياها بشكل عام ، لأن الفلسفة الاسلامية ، مطردة فى موضوعاتها متحررة فى تناول قضاياها .

٣ ــ عدم ايجاد نتائج محددة ، تظهر فائدتها على المجتمع الاسلامى بشكل بارز وسريع .

٤ ــ الخشية من تطرق الفلسفة الالحادية الى البيئة الاسلامية فى شكل فلسفة اسلامية أو تحت اسم من أسمائها .

الفصل الثانى

(تعريف الفلسفة الاسلامية)

(تعريف الفلسفة الاسلامية)

١ — في اللغة :

الفلسفة بمعنى وضع الشيء في موضعه ، مساوية لمدلول لفظ الحكمة والحكمة في اللغة تعني القبض ، يقال حكم الشيء أي قبض عليه ، ومنه حكمة الدابة ، لأنها تمنعها .

و " الحكيم ، العالم ، وصاحب الحكمة ، والحكيم أيضا المتقن للأمور ، وقد حكم من باب ظرف أي صار حكيما " (١)

يقول الزمخشري ، في أساس البلاغة ، في مادة حكم .

" حكم ، أحكم الشيء فاستحكم ... وحكّموه جعلوه حكيما ، وفي الحديث أن الجنة للمحكمين " ... ورجل تحكم ، مجرب منسوب الى الحكمة ، وحكم الرجل ، أي صار حكيما ، ومنه قول النابغة :

واحكم كحكم فتاة الحي اذ نظرت — الى حمام سراع وارد الثمد (٢)

وقصيدة حكيمة ذات حكمة — قال الشاعر :

وقصيدة تأتي الملوك حكيمة — قد قلتها ليقال من ذا قالها (٣)

وهكذا فان دلالتها اللغوية لاتخرج عن وضع الشيء في موضعه ، ووصف فاعله بالحكمة ورزانة الفكر ، ورجاحة العقل ، كما أن الفعل ذاته ايجابا أو سلبا يوصف بأنه في موضعه .

من هنا بانت الدلالة اللغوية ، لتعريف الفلسفة ، باعتبارها مرادفة لها ومتواردة على المعنى الواحد الذي يقصد من احداهما عند اطلاق الأخرى .

---

(١) مختار الصحاح — مادة حكم ص ١٦٥ ط ٣

(٢) الثمد : هو الماء القليل الذي لامادة له ، مختار الصحاح مادة ثمد باب الثاء

(٣) أساس البلاغة للزمخشري مادة حكم كتاب الشعب باب الحاء عدد ١٠٢ سنة ١٩٦٠

ولذا فقد وصفت فتاة الحي بأنها حكيمة ، في قول النابغة ، ووصفت القصيدة بأنها تحمل من الحكمة ومعانيها ، ما يستوجب وصفها بأنها في حد ذاتها حكيمة وذلك ما قصد اليه الناظم .

٢ ـ في الاصطلاح الخاص :

يقول الجرجاني في تعريفاته :

" الفلسفة ، التشبه بالاله بحسب الطاقة البشرية ، لتحصيل السعادة الابدية كما أمر الصادق صلى الله عليه وسلم ، وفي قوله عليه السلام " تخلقوا بأخلاق اللـه أي تشبهوا به في الاحاطة بالمعلومات ، والتجرد عن الجسمانيات " (١)

ثم ان الجرجاني وضع عدة تعريفات لمادة الحكمة ، نختار منها (بجانب مـا ذكر من تعريف للفلسفة) بعضها على النحو التالي :

أ ـ " علم يبحث فيه عن حقائق الأشياء ، على ما هي عليه في الوجود بقـدر الطاقة البشرية ، فهي علم نظري غير آلي " .

ب ـ " هي هيئة القوة العقلية العلمية المتوسطة بين الافراط فيها والتفريط أي بين الجربزة والبلادة " (٢)

جـ ـ " الحكمة الالهية ، علم يبحث فيه عن أحوال الموجودات الخارجيـة المجردة عن المادة التي لايقدرتنا واختيارنا "

د ـ " وقيل هي العلم بحقائق الأشياء ، على ما هي عليه ، والعمـل بمقتضاه ، ولذا انقسمت الى العلمية والعملية " (٣)

---

(١) التعريفات للجرجاني ص١٤٧ ، ١٤٨
(٢) المرجـع السـابق .
(٣) المرجـع السـابق ص٨١

من خلال هذه التعريفات ، نصل الى [illegible] الحكمة هي [illegible] المبادئ الاولى للوصول الى خالقها بالعلم [illegible] كالبحث في الكون بطريق المعامل ، أو البحث فيه من ناحية [illegible] غير مادية لا تخضع الا لعالم الغيب والميتافيزيقا فلا فرق [illegible]

٢ — في القرآن الكريم :

قال تعالى : " يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الألباب " (١)

* استعرض الامام الرازي المفسر الآراء في معنى الحكمة التي وردت في الآية الكريمة ، ثم انتهى الى أن الحكمة هي [illegible] أو الفهم أو العلم أو النبوة ، أو القرآن . ثم قال : ان جميع هذه الوجوه عند التحقيق ترجع الى العلم " (٢) ولعل العلم الذي قصده الامام الرازي ، هو العلم بالله تعالى ، والمبادئ الاولى ، وعلاقة الله تعالى بها ، على الوجه الاسلامي .

* أما الامام الخازن فانه يرى ، أن معنى الحكمة في الآية ، هو فهم القرآن الكريم وعلومه ، فيقول : " قال ابن عباس ، هي علم القرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ، ومقدمه ومؤخره " (٣) الخ ، ولا شك أن علم القرآن الكريم شامل لكل ما من شأنه أن يعلم ، ويستدل به على الخالق الكريم جل وعلا ، وبه تظهر حكمته في خلقه ، ولا تخرج الحكمة عن هذا الذي قصده ابن عباس .

* ويقول الامام النسفي :

" يؤتي الحكمة من يشاء ، يعني علم القرآن والسنة ، أو العلم النافع الموصل الى رضا الله والعمل به ، والحكيم عند الله هو العالم العامل " (٤) .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٩

(٢) الامام الرازي — مفاتيح الغيب جـ ٧ ص ٧٢

(٣) الامام الخازن — تفسير الخازن جـ١ ص ٣٥٣ — ٣٥٤

(٤) الامام النسفي — مدارك التنزيل وحقائق التأويل بهامش الخازن ص ٢٢٢ ٢٢٣ جـ١

وهذا يدلنا على أن الفلسفة الاسلامية التى هى بمعنى الحكمة ومحبتهـا ، ليست وليدة الفكر اليونانى ، وانما نبه اليها الشرع الشريف ، وبأوسع مما فى أبحاث اليونان وأدق ، مما يؤكد شمولية المصادر الاسلامية وسعة أبحاثها ، مع مافيهـا من جدة ، وما يبدو فى ثنايـاها من طرافة .

وقد ورد لفظ الحكمة والحكيم فى القرآن الكريم كثيرا ، وكثر الورود عند الحديث عن أنبياء الله ، وبيان فضل الله عليهم من ذلك قوله تعالى :

" ربنا وأبعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم " (١)

" واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به " (٢)

" وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ، وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما " (٣)

" وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب " (٤) وما الحكمة فى معنى من معانيها الا وضع الشيء فى موضعه ، وما الحكمة بمعنى الفلسفة الالهية الا ذلك علما وعملا .

وقد صور القرآن الكريم بعض ما يكون بين الخير والشر من صراع ، ووضح أن نهاية الشر محتومة ، وأسطورته مقضى عليها ، وذلك حين يكون الصراع بين فريقين أحدهما مؤمن والثانى غير ذلك ، وبيّن أن المؤمن فاز بالنعمة الكبرى ، والحكمة السامية ، والثانى خاب بما اعتقد ، وخسر بما فعل .

من ذلك أيضا معركة داود وجالوت ، معركة الايمان والكفر ، وقد انتصر فريق الايمان ، فقال القرآن الكريم " فهزموهم باذن الله ، وقتل داود جالوت

---

(١) سورة البقرة الاية ١٢٩
(٢) سورة البقرة الاية ٢٣١
(٣) سورة النساء الاية ١١٣
(٤) سورة ص الايـة ٢٠

وآتاه الله الملك والحكمة ، وعلمه مما يشاء ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين " (١) وهنا تأتى الحكمة بمعنى الرسالة .

قال الامام ابن كثير : " ثم آل الملك الى داود عليه السلام ، مع ما منحه الله به من النبوة والعظمة ، ولهذا قال الله تعالى ، وآتاه الله الملك ، الذى كان بيد طالوت ، والحكمة أى النبوة ، بعد شمويل ، وعلمه مما يشاء ، أى مما يشاء الله من العلم الذى أختصه به صلى الله عليه وسلم (٢) وماذا بعد الملك ، سوى العلم القائم على تأمل الملكوت الواسع ، الذى يشهد بعظمة خالقه ويؤيده الوحى وما الذى تدعيه الفلسفة بعد هذا الا محاولة الوصول للحق ، وان كانت درجة الحكيم أقل من مرتبة النبى ، وأعنى بالحكيم هنا الفيلسوف المسلم لاغيره .

وقال الشيخ عبد الوهاب النجار : " المراد بالحكمة النبوة ، وأصل معناها اللغوى ، وضع كل شئ فى محله ، أى أن يقول الانسان القول لاخلل فيه وليس فيه موضع للفظ (ليت أولو) ويفعل الصواب الذى لاأعتراض لأحد عليه ، بل يأتى به الانسان على وجه الكمال ، ومعلوم ان النبوة هى من هذا القبيل ، ولكن الحكمة بمعنى النبوة ، تكون هبة من الله تعالى ، دون أن تكون نتيجة بحث أو درس ، ثم يواصل قوله مستثنيا .

ولكن حكمة غير الأنبياء تكون بعد البحث والدرس ، ومجاهدة النفس ورياضتها على السير بمقتضى الحكمة ، فالنبوة طريق الى الحكمة مختصر ، ويختص الله به من اصطفاهم من عباده ، وهو الفاعل المختار " (٣)

ولذا فان تعريف القرآن الكريم ، لهذه الامور التعقلية ، وتسميته لها بالحكمة تسمية قرآنية اسلامية خالصة لايعاب بها المفكرون المسلمون ، ان هم على دربها ساروا ، وعلى منوالها نسجوا .

---

(١) سورة البقرة الاية ٢٥١
(٢) الامام بن كثير تفسير القرآن العظيم المجلد الاول ص٤٤٧ طبعة الشعب
(٣) الشيخ عبد الوهاب النجار قصص الانبياء ص ٢٧٠ مكتبة التراث طبعة ٢

وكما جاءت الحكمة فى بيان دفع الخير للشر ، ومصارعته ، جاءت فى بيان دفع الحسد ، والوقوف فى مواجهة باغضى الخير للناس ، الناعين على الله فضله مهما كان حجم من يرجع الفضل اليه ، قال تعالى : " أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما " (١)

قال الامام النسفى : " فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب ماى التوراة ، والحكمة الموعظة والفقه " (٢) ومن المعلوم أن النبوة فى بنى اسرائيل ، كانت فى أولاد ابراهيم عليه السلام ، وانهم توارثوا الصحف التى انزلت على ابراهيم عليه السلام حاملة النبوة الشرعية ، والأحكام العملية ، وفى ثناياها الأحكام العقدية بداية ونهاية ، وجاء القرآن الكريم ، موضحا لما كان فيها ، فأشار الله اليها به .

قال تعالى : " ان هذا لفى الصحف الاولى ، صحف ابراهيم وموسى " (٣) وقوله تعالى : " أم لم ينبأ بما فى صحف موسى ، وابراهيم الذى وفى " (٤) ، كما أنه من المعلوم أن النبوة امتدت فى أولاد ابراهيم عليه السلام وحيث اسماعيل عليه السلام ، جد المصطفى الحبيب صلى الله عليه وسلم ، وقد أنزل الله عليه القرآن الكريم ، وحيث اسحاق بن ابراهيم عليهما السلام ، وولده من بعده وهم الذين أنزلت عليهم وفيهم التوراة ، وهم بنوا اسرائيل ، ومنهم أنبياؤها .

من هنا فان قول الامام النسفى بأن الكتاب المؤتى لآل ابراهيم هو التوراة ، قول فيه عموم ، والاولى به التخصيص ، حتى لايقال ان القرآن الكريم جزء من التوراة أو أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم ليس من آل ابراهيم عليهم السلام ، ويكون التخصيص ، اما بأن حرف ال فى الكتاب ، قصد به العهد ، والمعهود هو التوراة وبالتالى ينضاف الى عبارته فقد آتينا آل ابراهيم من ولده اسحاق وذريته ، التوراة

---

(١) سورة النساء الآية ٥٤

(٢) الامام النسفى مدارك التنزيل ، وحقائق التأويل ، هامش لباب التأويل فى معانى التنزيل للخازن جـ ١ ص ٤٨١

(٣) سورة الأعلى الآيتان ١٨ ، ١٩ (٤) سورة النجم الآيتان ٣٦ ، ٣٧

هداية لبنى اسرائيل ، كما قد أوتى اسماعيل من ولده الرسالة فى محمد صلى الله عليه وسلم ، الكتاب المعهود له وهو القرآن الكريم ،هداية للناس أجمعين .

أو يكون حرف آل فى الكتاب للجنس ويكون المعنى ، أن الله تعالى منح آل ابراهيم الكتاب السماوى المنزل من عنده تعالى لهداية الخلق أجمعين ، حيث يعرفهم بخالقهم العظيم ، سواء كان الكتاب لطائفة معينة من البشر ، كالحال فى التوراة والانجيل ، وصحف ابراهيم وصحف موسى ، وزابور داود ، أو كان الكتاب عاما لجميع البشر ، بل والانس والجن ، كالحال مع القرآن الكريم ، الذى أنزله الله على قلب الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم .

وفى هذا المعنى جاء قوله تعالى :

" واذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم اصرى ، قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين " (١)

وقوله تعالى :

" لقد منّ الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم أياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين " (٢)

وقوله تعالى :

" هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين ، وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم " (٣) .

---

(١) سورة آل عمران الآية ٨١
(٢) سورة آل عمران الآية ١٦٤
(٣) سورة الجمعة الايات ٢ ، ٣

وأرانى أشد ميلا الى أن الحكمة فى الآيات القرآنية ، هى الفهم الدقيق لأسرار التنزيل ، سواء كان الفهم بواسطة توضيح النبى المرسل الى المبعوث فيهم ، أو مباشرة العقل لأسباب الفهم الدقيق بعد مطالعته التنزيل ، ومحاولاته الدائبة أن يكون فهمه لما أنزل الله على الوجه الذى يريده جل وعلا لأن علامة صدق الرسول المعجزة ، ومادام القوم قد علموا أنه الرسول اليهم ومعه كتاب من الله اليهم ، فان الحكمة التى يعلمهم الرسول اياها ، اما أن تكون السنة الخاصة بالنبى صلى الله عليه وسلم ، ونعنى بها الحديث الشريف ، كما هو الحال مع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ولأنه الوحيد الذى جاءت سنته مع القرآن الكريم بيانا لمجمله أو اطلاقا لمقيده ، أو توضيحا لمبهمه ، أو استقلالا بحكم شرعى على رأى من يجيز استقلال السنة الصحيحة بالحكم الشرعى " (١) أو الحاقا لحكم فرعى ، بحكم أصلى ورد فى القرآن الكريم ، على رأى من يرى عدم الاستقلال . (٢) واما أن تكون السنة غير ذلك .

ولم يصلنا بطريق موثق أن نبيا غير سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، كانت له سنة نقلية تؤخذ منها الاحكام الشرعية ، وبالتالى فان الحكمة التى أتت يجوز صرفها الى معنى أن الله أمر عباده بتكاليف وعبادات وعقيدة منزلة فى الكتاب الذى يحمله النبى المرسل اليهم ، ومع النبى الحكمة التى هى اعانتهم على التكاليف الشرعية لمن أراد الاستقامة ، وهى الفهم عن الله تعالى بنور الله الذى يضعه فى المكلف ، الا وهو العقل الذى من أخص خصائصه ، وضع الشئ فى موضعه ولا تزيد الحكمة عن هذا المعنى فى شئ .

بيد أن بعض الأفهام ، قد تصر على أن لفظ الحكمة معناه النبوة ، وبالتالى

---

(١) راجع كتب الاصول والاحكام ، وكتب السنة من ناحية مكانتها فى التشريع الاسلامى
(٢) راجع أصول التشريع الاسلامى للدكتور / على حسب الله .

يكون الأمر اثبات الرسالة للرسول أولا ، ثم ارساله الى قومه بالكتاب الموجه من الله اليهم ، ثم يأتى أمر آخر يؤكد تلك النبوة ألا وهو الحكمة وذلك ان اعتقد به صاحبه فله أن يلتزم به لا أن يُلزم غيره به ، وليس ذلك مما يستوجب الاختلاف ولا مما يستدعى البحث عن أوجه للخلاف ، وانما هو رأى ربما خطأوه أكثر من صوابه ، والعكس .

والذى يدعم ما ذهبنا اليه ويؤكده ، هو قول الحق جل وعلا " أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين " (١) وبالتالى فان الحكمة هى " المقالة المحكمة الصحوبة بالدليل ، الموضح للحق المزيل للشبهه ، وهى الحجة القطيعية والكلام الصواب الواقع من النفس اجلى موقع ، وهى الاصابة بالعلم والعقل ، ومعرفة الموجودات وفعل الخيرات ، والحكيم العالم وصاحب الحكمة والحكيم أيضا المتقن للأمور " (٢) وهى ولا شك غير النبوة على ما قررناه .

وقد اختلف المفسرون فى دلالة الحكمة ، وتعيين المراد منها ، فى القرآن الكريم على أقوال كثيرة خاصة عند تفسيرهم للآيات التى ورد فيها لفظ الحكمة مما يدل على أن تعيين نوع منها وتحديده فقط هو لون من التحكم الذى لا مسوغ له بل وقصرها على النبوة فيه من التخصيص ما لا يدل عليه ، ولا مبرر له .

بيد أن قوله صلى الله عليه وسلم " الحكمة ضالة المؤمن ينشدها أنى وجدها " يجعل ما ذهبنا اليه مؤكدا ، وأن اتساع لفظ الحكمة ليشمل الفهم الصحيح والعلم بالقرآن الكريم ، ومواعظه ، وعجائبه واسراره ،وهو اولى من اختصارها على مدلول النبوة فقط .

---

(١) سورة النحل الآية ١٣٥

(٢) الدكتور / محمد متولى ادريس تفسير سورة النحل ص ٦٦٢ دكتوراه بكلية أصول الدين بالقاهرة .

ثم ان قوله صلى الله عليه وسلم فى القصة المشهورة " ورب الكعبة حكماء كادوا بفعلهم أن يكونوا أنبياء " دليل قوى وأكيد على أن الحكمة غير النبوة وأن الحكيم المؤمن بالله رب العالمين ، المتبع لسيد الخلق سيدنا محمد بن عبدالله ، لهو فى مرتبة قريبه من درجة النبى ، ويدل على ذلك الفعل الدال على المقاربة ، كادوا) الوارد فى الحديث الشريف .

والمتأمل فى قوله تعالى ، أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة يرى أن الحكمة لا يمكن قصرها على النبوة ، لأن الأمر هنا للرسول صلى الله عليه وسلم ولكل من يتبع سيرته ، ويجعله القدوة له فى الاتباع ، والقائد فى الانصياع وبالتالى فليس من المعقول أن يطلق على من يدعو الى الله ، واتباع سبيله أنه نبى ، للأحاديث المتواترة التى نهضت مؤكدة على ختم النبوة ، بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لكل الأنبياء والنبوات .

" وأما الحكمة بمعنى فعل الصواب ، فقيل فى حدها ، أنها التخلق بأخلاق الله تعالى بقدر الطاقة البشرية ، ومدار هذا المعنى على قوله صلى الله عليه وسلم " تخلقوا بأخلاق الله تعالى " (١) وبالتالى فان الحكمة لاتخرج عن واحد من هذين المعنيين :

* العلم بالشيء
* فعل الصواب على مايقتضيه العلم .

ولعل الباحثين فى الفلسفة الاسلامية على الخصوص ، لايجدون مناصا من تسمية الحكمة الالهية بالفلسفة الاسلامية ، أو الفلسفة الاسلامية بالحكمة الاسلامية وليت الرافضين للفلسفة يبدون لونا من الحوار الهادف حتى يعرفوا أن الفلسفة الاسلامية هى الحكمة التى أمر بها الشرع الشريف ونبه اليها القرآن الكريم وحث عليها الحديث النبوى الكريم ، ولعل الفقهاء يتفقون والمتصارعين للحق يعودون .

(١) الدكتور / محمد متولى ادريس تفسير سورة النحل ص ٦٦٥ دكتوراه بكلية أصول الدين — القاهرة .

(الحكيم من أسماء الله الحسنى)

وردت مادة الحكمة فى القرآن الكريم كثيرا ، باعتبارها اسما من أسمائه تعالى الحسنى ، فمن اسمائه " الحكيم " وقد وردت فى الحديث الشريف فعن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ان لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة " (١) كما ورد فى الصحيحين عن ابى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ان لله تسعة وتسعين اسما ، مائة الا واحدا من أحصاها دخل الجنة " (٢) .

قال الامام الايجى " الحكيم ذو الحكمة ، وهى العلم بالأشياء على ما هى عليه ، والاتيان بالأفعال على ما ينبغى ، وقيل الحكيم بمعنى المحكم من الاحكام وهو اتقان التدبير ، واحسان التقدير " (٣) ، وجاءت آيات القرآن الكريم مؤكدة هذا المعنى ، فى جانب المولى الحكيم عز وجل . قال تعالى :

" رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما " (٤) .

وقال تعالى :

" يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيرا لكم ، وان تكفروا فان لله ما فى السماوات والارض ، وكان الله عليما حكيما " (٥)

---

(١) جامع الأحاديث جـ ٢ ص ٤٤٥ أخرجه الترمزى وابن حبان والحاكم والبيهقى عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) فيض القدير جـ ٢ ص ٤٨٨ وأخرجه النجارى ومسلم والترمزى والبيهقى عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٣) السيد الشريف الجرجانى شرح المواقف فى علم الكلام ، الموقف الخامس فى الالهيات وتحقيق د / أحمد المهدى ص ٣٦٥ مكتبة الأزهر .

(٤) سورة النساء الآية ١٦٥

(٥) سورة النساء الاية ١٧٠

قال الشيخ الصابونى " أى عليما بأحوال العباد ، حكيما فيما دبره لهم" (١)

ومن الآيات التى ذكرت لفظ الحكيم باعتباره اسما من اسمائه تعالى الحسنى مايلى

قال تعالى : " والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم " (٢) . وقال تعالى :

" ان تعذبهم فانهم عبادك ، وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم " (٣)

قال تعالى :

" قوله الحق وله الملك ، يوم ينفخ فى الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير " (٤) . وقال تعالى :

" وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم" (٥)

وقال تعالى : " ويوم يحشرهم جميعا يامعشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها الا ماشاء الله ان ربك حكيم عليم " (٦)

وقال تعالى :

" وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ، وان يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم انه حكيم عليم " (٧) .

وقوله تعالى :

" وما النصر الا من عند الله ، ان الله عزيز حكيم " (٨)

---

(١) الشيخ محمد على الصابونى صفوة التفاسير القسم الثانى ص١٤٢ دار القرآن الكريم بيروت .

(٢) سورة المائدة الآية ٣٨

(٣) سورة المائدة الآية ١١٨

(٤) سورة الأنعام الآية ٧٣

(٥) سورة الأنعام الآية ٨٣

(٦) سورة الأنعام الآية ١٢٨

(٧) سورة الأنعام الآية ١٣٩

(٨) سورة الأنفال الآية ١٠

وقوله تعالى :

" اذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ، ومن يتوكل على الله فان الله عزيز حكيم " (١)

وقوله تعالى : " لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم انه عزيز حكيم " (٢)

وقوله تعالى :

" ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم " (٣)

وقوله تعالى :

" وان يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم " (٤)

وقوله تعالى :

" قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم " (٥)

وقوله تعالى :

" يا أيها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء ان الله عليم حكيم " (٦)

---

(١) سورة الأنفال الآية ٤٩
(٢) سورة الأنفال الاية ٦٣
(٣) سورة الأنفال الآية ٦٧
(٤) سورة الأنفال الآية ٧١
(٥) سورة التوبة الآيتان ١٤ ، ١٥
(٦) سورة التوبة الآية ٢٨

وقوله تعالى :

" الا تنصروه فقد نصره الله ، اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار ، اذ يقول لصاحبه لاتحزن ان الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم " (١)

وقوله تعالى :

" انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم " (٢)

وقوله تعالى :

" الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير " (٣)

قال صاحب " صفوة التفاسير " (أحكمت) الاحكام : المنع من الفساد يقال أحكم الأمر اذا أتى به على وجه لايتطرق اليه خلل أو فساد .. وقوله تعالى " كتاب أحكمت آياته ،أى هو كتاب جليل القدر ، نظمت آياته نظما محكما لايلحقه تناقض ولاخلل ، ثم فصّلت ، أى بينت فيه أمور الحلال والحرام ، وما يحتاج اليه العباد فى أمور المعاش ، والمراد من لدن حكيم خبير " أى من عند الله فصلها وبينها الخبير العالم بكيفيات الأمور ، ولذا كانت محكمة أحسن الاحكام ومفصلة أحسن التفصيل . (٤)

وقوله تعالى :

" وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل ابراهيم واسحق إن ربك عليم حكيم " (٥)

---

(١) سورة التوبة الاية ٤٠
(٢) سورة التوبة الاية ٦٠
(٣) سورة هود الاية ١
(٤) الشيخ محمد على الصابونى صفوة التفاسير جـ ٦ ص ٦ المطبعة العربية الحديثة
(٥) سورة يوسف الاية ٦

وقوله تعالى :

" قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعا انه هو العليم الحكيم " (١)

وقوله تعالى :

" والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله ان الله عزيز حكيم " (٢)

وقوله تعالى :

" الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم " (٣)

وقوله تعالى :

" وآخرون مرجون لأمر الله ، اما يعذبهم واما يتوب عليهم والله عليم حكيم " (٤)

وقوله تعالى :

" لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم الا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم " (٥)

---

(١) سورة يوسف الآية ٨٣
(٢) سورة التوبة الآية ٧١
(٣) سورة التوبة الاية ٩٧
(٤) سورة التوبة الاية ١٠٦
(٥) سورة التوبة الاية ١١٠

من جماع تلك الآيات التي مر ذكرها ، والآيات القرآنية الأخرى التي لم نثبتها خشية الاطالة ، يتبين بجلاء أن الحكمة أسم من أسماء الله الحسنى كما أنها وصف له سبحانه وتعالى ، أو هي وصف نقل الى الاسمية ، كما نص بها الحديث الشريف (١) من قوله صلى الله عليه وسلم :

" ان لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة "

وانطباقها مع قوله تعالى :

" ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون " (٢)

وقوله تعالى :

" قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الاسماء الحسنى ، ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا " (٣)

---

(١) راجع في كتب العقيدة ، هل صفات الله الحسنى اسماء له ؟ أم ليست كذلك
(٢) سورة الأعراف الآية ١٨٠
(٣) سورة الاسراء الاية ١١٠

(وصف القرآن الكريم بهـا)

جاء لفظ الحكمة ومشتقاته صفة للقرآن الكريم من ذلك قوله تعالى :

" ألر تلك آيات الكتاب الحكيم "[1] أى هذه آيات القرآن المحكم المبين الذى لا يدخله شك ، ولا يعتريه كذب ولا تناقض " (٢) وبجانب أن هذا وصف لآيــات القرآن الكريم ، فهو كذلك وصف للقرآن الكريم كله ، وذلك من قوله تعالى :

" كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير " (٣) وأحكمت هنا غيــر (محكمات) فى قوله تعالى :

" هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات " (٤)

لأن أُحكمت فى سورة هود بمعنى خلت من وجوه الضعف وجوانب الفســاد وأُحكمت كذلك فى البناء والمعنى والهدف المراد ، لأن القرآن كلام الله تعالــى " وهو الذى أنزله أفلا يتدبرون القرآن ، ولو كان من عند غير الله لوجــدوا فيه اختلافا كثيرا " (٥) ولأن المعنى والله أعلم ، أن القرآن الكريم الذى وقــع الاعجاز به ، مركب من جنس الحروف التى العتم الاتيان بها ، ومع هذا فقد أحكم كل شىء فيه من قصصه وأخباره ، وقواعده ، وأحكامه ، وسوره وآياته ، وحروفــه وكلماته ، بحيث يستحيل الاتيان بمثله أو عشر سور منه أو سورة واحدة ، أو آيــة وكذلك يستحيل الاتيان بمثل قصصه وأخباره واعجازه ، ثم بينت الآيات المفصلة فيه المجملة منه خاصة فى أمور العقيدة والمعاد والمعاش ، وكان الكتاب والاحكــام والتفصيل كله من رب عالم قادر ، واحد أحد عليم بعباده ، حكيم فى كل ما فرضــه عليهم ، خبير بما فى قدراتهم ، وطاقاتهم التى وقع التكليف عليها .

---

(١) سورة يونس الآية ١

(٢) الشيخ محمد على الصابونى صفوة التفاسير جـ ٥ ص ٥٧٢ .

(٣) سورة هود الآية ١

(٤) سورة آل عمران الاية ٧

(٥) سورة النساء الاية ٨٢

أما آيات محكمات ، فى سورة آل عمران ، فهو ما اتفق على أن له وجها واحدا وماعرف المراد بظاهرة وكان قطعى الدلالة ، كما هو معلوم الثبوت .، بخلاف المتشابه الذى هو قسيم المحكم — ولا يقال أن أحكمت هنا هى بمعنى محكمات هناك ، للفرق بين المعنيين والدلالتين وذلك واضح البيان ، وبالتالى فقد بان أن الحكمة وُصف بها القرآن الكريم .

(مع الاسماء الحسنى فى الدلالة والانحصار والتوقيف)

قال الامام القرطبى فى تفسير قوله تعالى :

" ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها " أمر باخلاص العبادة لله تعالى ومجانبة الملحدين والمشركين (١) فى محاولاتهم تسمية أبنائهم وذويهم بأسماء الله تعالى أو اطلاق تلك الاسماء الحسنى على معبوداتهم التى لا مكان لها عند الله ، الا ما ورد فى قوله تعالى :

" انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون " (٢)

ومكانهم هنا العذاب المقيم .

وقال الامام الألوسى فى تعداد الاسماء الحسنى وانحصارها فى العدد " والذى أراه أنه لا حصر لأسمائه — عزت أسماؤه — فى التسعة والتسعين " المشهورة بين الناس ، ودليله فى عدم انحصارها فى هذا العدد ما أخرجه البيهقى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من أصابه هم أو حزن فليقل : اللهم انى عبدك وابن عبدك وابن أمتك ، ناصيتى فى يدك ماض فى حكمك ، عدل فى قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك .. الى آخر الحديث الذى يدل على عدم انحصار الاسماء الحسنى فى العدد الذى نص عليه الحديث .

وحكى النووى رضى الله عنه — اتفاق العلماء على ذلك — عدم الحصر — وأن المقصود من الحديث الاخبار بأن هذه التسعة والتسعين من أحصاها دخل الجنة ، وهو لا ينافى أن له تعالى أسماء غيرها " (٣) فيمكن لواحد أن يجمع

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٧ ص ٣٢٥ (٢) سورة الأنبياء الآية ٩٨

(٣) تفسير الألوسى جـ ٩ ص ١٢٢ بتصرف يسير .

تسعة وتسعين من اسمائه تعالى ، ويأتى آخر يجمع تسعة وتسعين فيها بعض ما جمع الأول ، وكلاهما حافظ لما جمع ، ونحن أميل الى عدم الانحصار ، لأن المتابع لأسمائه تعالى الحسنى فى القرآن الكريم ، يجد أسماء لم يأت بها الحديث الذى ذكر تسعة وتسعين ، وبالتالى لايكون الغرض الحصر ، انما الغرض حصر الفائدة التى تحصل لمن يحفظ لله تسعة وتسعين اسما ، يعمل بها ولها يتقرب وبها يتعلق ، ومن اسمائه سبحانه وتعالى " الحكيم " .

قال الشيخ الصابونى فى تفسير قوله تعالى :

" ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها " أى لله الاسماء التى هى أحسن الاسماء وأجلها ، لانبائها عن أحسن المعانى وأشرفها فسموه بتلك الأسماء ثم قال " وقد ذكر ابن العربى عن بعضهم (العلماء) أن لله تعالى ألف اسم (١) وهنا خلاف ينشأ هل اسماء الله توقيفية أم لا ؟ ونحيلك الى المصادر للاستزادة (٢) وعندى أن المشهور منها توقيفى ، بعد جمع كل الروايات وأن زادت فى مجموعها على العدد المشهور ، وقد ذكر الامام الايجى عددا من اسمائه تعالى زائدة على المشهور فى القرآن الكريم والسنة المطهرة منها ما فى القرآن ، فكالمولى والنصير ، والغالب والقاهر والقريب والرب والناصر والأعلى والأكرم ، وأحسن الخالقين وأرحم الراحمين ، وذى الطول ، وذى القوة ، وذى المعارج .. الى غير ذلك .

وأما فى الحديث ، فكالحنان ، والمنان ، وقد ورد فى رواية ابن ماجة أسماء ليست فى الرواية المشهورة ، كالتام والقديم ، والوتر ، والشديد والكافى وغيرها " (٣) .

---

(١) الشيخ محمد على الصابونى صفوة التفاسير القسم الرابع ص ٥٤ ، ٥٦ .

(٢) راجع المقصد الأسنى لشرح الاسماء الحسنى للغزالى ، الاعتقاد على مذهب السلف للبيهقى ، وأبكار الافكار للآمدى الفصل الثالث فى معانى اسماء الله تعالى والمواقف للايجى الموقف الخامس المرصد السابع ، فى اسماء الله تعالى

(٣) الامام عضد الدين الايجى شرح المواقف موقف ٥ مرصد ٧ مقصد ٣ .

من هذا كله نخلص الى أن الحكيم من اسمائه تعالى ، سواء كانت الاسماء توقيفية أو غير ذلك ، وسواء كانت منحصرة أم لا ، وأن الحكيم بالنسبة لله تعالى اسم له ، ووصف يتناسب مع ذاته جل وعلا ، ولو شاركه فى الوصف أحد من خلقه فلينظر الناظر الى الفرق الرهيب بين ما للخالق من مكانة ، وما للمخلوق من ضعف ، ينظر الى ما يناسب الكامل ذى الجلال والاكرام ، وفرق بين المخلوق والخالق .

(فى السنة النبوية المطهرة)

لم تخل السنة المطهرة من الاشارة الى الحكمة ومحبتها ، وعلى مفهوم الفلسفة من محبة الفلسفة والدعوة لها ، ولسنا نعنى بالفلسفة تلك التى تبحث عن الله من خلال منهج شكى بغرض الشك ، كما فعل — ذلك طويلا — الشكاك فى كل العصور (١) ولا تلك التى تبحث عن الاله جل وعلا فى صورة مادية ، أو من خلال مدلول طبعى ، أو فى ظاهرة ملموسة (٢) ، لأن تلك فكرة مادية وناحية جدلية .

انما النوع الذى نعنى به ، أن السنة المطهرة قد أشارت اليه ، هو تلك الحكمة الالهية التى تبحث فى العالم وعلاقة الله به واليوم الآخر بصورة موصلة الى تعميق الايمان بالله تعالى والسير فى مجاهدة النفس بغية ارضاء الخالق الحكيم وهذا هو طريق التأمل العقلى والذى نرمى اليه ونرومه .

لأن ما يبحث فى غير ذلك — أو فيه بطريقة غير ايمانية ، ولا موصلة للايمان الحقيقى بالله رب العالمين على سنن الأنبياء والمرسلين ، بدء من آدم عليه السلام ، وانتهاء بمحمد صلى الله عليه وسلم ، أقول ما يبحث فى غير ذلك — مهجور فى الأصول الاسلامية ، منكورونها ، بل انه يحرم النظر اليه لمجرد النظر لأن فيه ضياعا لوقت المؤمن بلا طائل .

---

(١) لعل مونتانى ، فيلسوف الشك أوضح مثال لذلك اللون فى العصر الحديث ، والذى كان يردد دائما ، كلما ازددت بحثا ازددت شكا ، واننى أشك للشك ، وكانت نهايته الفراغ والموت والانتهاء ، واستمر شكه معه طويلا حتى نسب اليه القول ، اننا نشك حتى فى أننا نشك . ومثله سانشيه الذى كان يقول " كلما ازددت تفكيرا ازددت شكا " راجع أسس الفلسفة وتوفيق الطويل ص٣٢٥ ، ٣٢٦

(٢) فعل ذلك الطبيعون الأولون حين بحثوا عن أصل الكون فى صوة مادية هى الماء أو الهواء والتراب والنار ، فقد نسب الى طاليس قوله " ان الماء هو أصل =

ولهذا حُرّم ضياع الوقت فيها ، ولعل هذا ما نبه اليه الرسول صلى الله عليه وسلم فى حديثه الشريف حين قال " نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ " كما أنها تحرم عند فريق من المسلمين ، لأنها آتية من غير المسلمين ولأنها تهدى الى خير عند آخـــرين ٠

أما الفلسفة التى توصل الى المعرفة بالله تعالى وترشد اليه ، بطريق تأملى عقلى ، فان البحث عنها فى السنة النبوية أمر ميســور ، ننوه اليه فى هـــذه الســطور ٠

= الأشياء ، وانه المادة الاولى والعنصر الوحيد الذى تتكون منه الموجودات" فى تاريخ الفلسفة اليونانية وعوض الله حجازى وآخر طـ ص ٤٩ ، بينما أنسب الى انكسمندر قول " تنشأ الموجودات من اللامتناهى ، ثم تنحل وتعود اليه فـــى أزمنة وآجال ، قد تطول وقد تقصر ، وهكذا دواليك ، فالحركة دائمة والموجودات متغيرة ، والمادة اللامتناهية باقية غير حادثة ولا فانية " المرجع السابق ص٥٢٠

وعلى حين قصير الاجل يبدو انكسمانس ينتقل ببطء فيقرر أن أصل الكون هو الهواء ويتبعه صديقه هيراقليطس الأفسوسى الارستقراطى الذى يقرر أن أصل العالم نار لا تلك التى ألفناها ، ولمسناها وشعرنا بلهيبها ، ولكنها نار لطيفة أثيريـــة الهية ، ومنها يتكون العالم حتى النفس الانسانية يؤكد على انها بخار حار ، وقبس من النار الالهية مهمتها تدبير الجسم كما تدبر النار عنده هذا العالم ٠

وهذه الآراء لاتمثل الا صورة مَرَضِيَّة هزيلة ، لاتقف أمام النقد العلمى ولاتنهض حجة لأصحابها بقدر ما هى عليهم ، وتعلن فى وضوح تقدم السوفسطائين الزمانـى من خلال الأفكار التى صيغت بعد ذلك آراء وقواعد سوفسطائية أو حسية أو ماديـــة جدلية سواء سميت تجريبية أم جدلية أو ماركسية أو طبيعية ٠

(رأى ورد)

غلب على أفهام بعض النبلاء ، أن وجود الفلسفة (أيا كان نوعها) حرام ، وأن البحث فيها كذلك ، سواء كانت بمعنى الحكمة ، أو محبتها ، مؤكدين على أنها-الفلسفة- " لم تزدهر الا فى غيبة الوحى أو خفوته ، وبمعنى آخر فان الفلسفة تأتى دائما لتحاول أن تملأ الفراغ المخيف الذى تتركه غيبة الهداية الالهية عن العقول " (١) ونحن معهم فى أن ذلك الحكم ينصب تماما على الفلسفة اليونانية على العموم ، وغير الاسلامية على الخصوص .

أما أن ينسحب الحكم على الفلسفة الاسلامية وغيرها ، فهذا ما لا نتفق فيه وذلك لما يأتى :

* ان الفلسفة اليونانية وغيرها ، تدّعى استقلالها عن الوحى ، وعدم تبعيتها له ، بل والتأكيد على أن سلطانها أعلى منه ، وليست كذلك الفلسفة الاسلامية ، أما لماذا ؟ فلأن الفلسفة الاسلامية أعلنت منذ أول وهلة أنها جاءت لتسير مع الوحى وتؤيده ، لا لتعانده وتعارضه ، ولأن الفلسفة الاسلامية فيما عَرَضَت له من موضوعات ، كانت تهدف الى اثبات أن العقل السليم والدين الحق لايختلفان فى غايتهما أبدا ، وأن العقل الصحيح اذا استنار بالدين القويم ، نال الحسنيين معا ، فآمن بالوحى وارتاح فى رحاب ما هدفت اليه بديهيات العقل .

* ثم ان الفلسفة الاسلامية بجانب أنها فى بعض جوانبها ، توفيقية وتأليفية فقد حملت فى ثناياها المناهج الاستدلالية على العقيدة الاسلامية حتى صارت بحق خير ما يرشد الى العقيدة الصافية مستنيرة بالكتاب والسنة وأن

---

(١) مجلة كلية أصول الدين بالرياض العدد الخامس ص ٢٦٠

كانت قد عمدت الى بعض المصطلحات الفنية فاختارتها كاصطلاح خاص بها .

* ثم ان القول بتحجيم الفلسفة وقصرها على ملء الفراغ المخيف ، لايتفق مع منطق الامور التى تتعرض لها الفلسفة على العموم والاسلامية على الخصوص فهى أمور عامة ، وأبحاث متحررة ، كما ذكر ذلك الكاتب نفسه (١) فكيف تكون متحررة ، ومع هذا لايكون لها دور الا عند غيبة الهداية الالهية عن العقول . ان هذا رأى لايستقيم مع نفسه .

* ثم مَنْ الذى قال ان الهداية الالهية عن العقول تغيب؟ أليست هذه الجملة فى حد ذاتها فلسفية المبنى ، وكذلك " الفراغ المخيف " من الذى استعمل كلمات الفراغ والمخيف ، ألا يذكِّر هذا الرأى بموقف الامام الغزالى حين هاجم الفلاسفة ، ثم غرق هو فى حبهما معا ، حتى ابتسم من موقفه شيخ الاسلام ابن تيمية ونقل فى كتابه " موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول"

عن أبى بكر بن العربى ، من أن الغزالى دخل بطون الفلاسفة ثم أراد أن يخرج منهم فما قدر " ... اذ أن أبا حامد لم يكد يترعرع حتى كشفت له الفلسفة النقاب عن جمالها الفاتن ، وابتسامتها الحلوة فهوى فى شباك غرامها القاهر ثم حاول بعد ذلك — لارهاق العوامل المحدقة به احداق السوار بالمعصم — أن يسلوا هواها ، أو أن يتخلص من حبائلها فلم يقو على هذا السلوان (٢) ولسنا نقول على صاحب الرأى كذلك ، وان كانت نفس المشاعر .

بيد أن استمرار هجومه على الفلسفة وتعميم ذلك الهجوم ، يعطى انطباعا آخر بشأن ما يلقيه من قضايا ، حيث يقرر فى جرأة بالغة أنه قد " جاء الكتاب فى الرسالة الخاتمة مقرونا بالحكمة ، أى السنة ، ليملأ الفراغ الذى تستغله الفلسفة باسم الحكمة وليقطع عليها الطريق التأويل التحريفى الذى سلكته مع الكتب الاخرى فبدلت معانيها ، وخرجت بها عن مقصودها . (٣) .

(١) المصدر نفسه السابق ص ٢٥٥
(٢) د / محمد غلاب المعرفة عن مفكرى المسلمين الدار المصرية للتأليف والترجمة ص ٣٣٦ ، ٣٣٧ .
(٣) مجلة كلية أصول الدين بالرياض العدد الخامس ص ٢٦١

ووجهة الجرأة هنا تعليله أقتران الكتاب الكريم بالسنة المطهرة ، وكأن القرآن الكريم وحده قد عجز عن ملء الفراغ — الذي يقول به — فجاءت السنة المطهرة لتآزره ، وتقطع الطريق التحريفي للكتاب — كالحال مع الكتب الاخرى — ويغيب عن سعادته ، أن القرآن الكريم ليس كالكتب السابقة يحتاج الى ما يحفظه انه محفوظ من قِبَلِ المولى الكريم ، الذى أقسم بذاته وحدث معظما نفسه فى قوله تعالى : " إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ، وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون " (١) فهو الذى أنزله وهو الذى الهمه قلب النبى الكريم ومكنه منه وبثه فى قلوب عباده المؤمنين ، فلن يحرف أبدا ولن يتغير منه شئ أبدا ، انه صفة الله ، فهو كلامه المبين والذكر الحكيم وهو لايحتاج الى شئ يحفظه غير أرحم الراحمين . كما غاب عن سعادته ، أن السنة ليست مهمتها حفظ الكتاب الحكيم من التحريف ، فهى ليست مكلفة بهذا الدور ، ولا مهيأة له ، انما هى تبيان لمجمل القرآن الكريم ، أو تفصيل لأحكامه أو تأكيد لما قرره ، أو استقلال فى حكم لم يذكره — على رأى من يقول باستقلالها فى الحكم (٢) أما لماذا ؟ .. فأولا: لأن القرآن معجزة ، وكونه معجزة لابد أن يبقى بهذا النص ، والا ضاع الاعجاز . وثانيا : لأن الله جرب عباده فى الحفاظ على الكتب السابقة فلم يحفظوها وحرفوها " (٣) فحفظه هو، وبالتالى فدور السنة لايكون مجرد ملء فراغ كانت تشغله الفلسفة ، ولاتكون لمجرد قطع طريق التأويل التحريفي ، كما يسميه الكاتب الذى سلكته مع الكتب الاخرى ، وانما للسنة المطهرة دور آخر بجوار القرآن الكريم ليس معاداة الفلسفة وانما بيا ن الصواب من الخطأ ، والحق من الباطل ، جنبا الى جنب مع القرآن الكريم ، بحيث يؤدى كل منها دوره ، الذى جعله الله تعالى متعلقا به .

---

(١) سورة الحجر الآية ٩

(٢) راجع كتب الاحكام حول دور السنة بالنسبة للقرآن الكريم ص٦٦ ، ٦٧ .

(٣) الشيخ محمد متولى الشعراوى معجزة القرآن ص٢٩ الجزء الاول كتاب اليوم .

= أما الفلسفة على العموم ، فاننا أكدنا على قطع صلتنا بها ، خاصة اذا تعلقت بها مسائل البحث عن الله تعالى ، أما اذا تعلقت بالاستدلال على وجود الله دون لج أو مغالطة ، فنحن نؤيدها ونشرط أن يكون سيرها فى الالهيات ، هو نفس السير فى النبوات والسمعيات الاسلامية بحيث يكون سيرا الهيا قائما على جناحى النقل والعقل ، ونعنى بها النقل الصحيح والعقل المتأمل فى ملكوت الله المسترشد بهداه ، وقد جاءت الحكمة فى القرآن الكريم ، لا بمعنى النبوة فى مواضع عدة ذكر بعضها أثناء الحديث عن وجودها فى القرآن الكريم ، وحتى يكون القول مشفوعا بالدليل كذا المسنورد بعض الأحاديث التى جاءت الحكمة فيها دالة على رجاحة العقل وسلامة التفكير ، وحرية التدبير ، فى اطار ما رسمه الدين الحنيف ، حتى يعرف القارئ العادى الفرق بين الفلسفة الاسلامية أو التفكير العقلى الاسلامى ، فى نظام الحياة والكون والوصول الى الله تعالى ، وبين الفلسفات الاخرى التى رسمت للانسان طريق الهلاك الذى لا يبرأ منه أبدا ، ولا يرحل عنه يقينا " .

= ان الفلسفات الاخرى تطالب بالتحرر من كل قيد ، وتأبى الانصياع لأى رأى علوى ، حتى لو كان ذلك للدين ، والفلسفة الاسلامية ليست كذلك ، فلا تدخل فى هذا العموم ، كما أن الفلسفات الاخرى لا تهتدى الا بالعقل وحده ، وبالتالى تختلف حوله ، أما الفلسفة الاسلامية فهى تؤمن بسلطان الدين ، وأنه خاطب العقل وجعل المكلفين عقلاء ، وأوجب عليهم البحث تحت سلطانه ، واليك موقف السنة من الحكمة .

الحديث الأول :

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لاحسد الا فى اثنتين ، رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها " متفق عليه (١) .

---

(١) شيخ الاسلام النواوى — رياض الصالحين كتاب العلم ص ٤٤٩ ، ٤٥٠ .

ولا شيء يمكن فهمه من لفظ الحكمة في الحديث ، الا العلم القائم على قواعد نقلية ، مصدرها القرآن الكريم ، والسنة المطهرة أو عقلية ناشئة عن التأمل في الكون ، وانعام النظر ، ومما يؤكد هذا الفهم ويعضده ، قول الحق جل وعلا " قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين " (١) .

وقوله تعالى : " قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون " (٢) من هنا فانه يمكن أن يقال : ان السنة المطهرة قد تناولت الحكمة بالدلالة عليها والاشارة اليها ، ثم نبهت الى محبتها وحثت عليها ، حتى صار بالامكان القول بأنه كان من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حكماء على طريقة القرآن الكريم ، ونهج السنة النبوية المطهرة .

الحديث الثاني :

ما روى عنه صلى الله عليه وسلم ، مع النفر الذين وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسألهم عن حالهم ، وبعد اجابتهم بما وافق القرآن الكريم قال صلى الله عليه وسلم لهم " ورب الكعبة حكماء كادوا بفعلهم أن يكونوا أنبياء " (٣)

هذان وغيرهما من الأحاديث النبوية التي حفلت بالحديث عن الحكمة ومحبتها والدعوة اليها ، يؤكدان بجلاء أن الفلسفة الاسلامية الالهية ، التي هي نفس الحكمة ومحبتها اسلامية المنهج والهدف والغاية .

وفي الحديث " اذا تواضع العبد لله ، رفع الله حكمته " و " إن من الشعر لحكمة " وقوله صلى الله عليه وسلم " الحكمة ضالة المؤمن ينشدها أنى وجدها "

---

(١) سورة الأنعام الآية ١١
(٢) سورة يونس الآية ١٠١
(٣) أسد الغابة في معرفة الصحابة جـ ٢ ص ٤٨٧ ، ٤٨٨ أخرجه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الزهد ، والخطيب في التاريخ ، وأنظر من وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم الوصية الثانية ص ١٨ .

(ورودها في أسماء العرب وأقوالهم وأشعارهم)

تسمي العرب بها :

اشتهر عند العرب الحنفاء ، وكان الحكيم عندهم مَنْ له اطلاع على المغيبات وله القدرة على الوصول لعلم النجوم ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل تعداه الى كل من له علم بفنون البحث عن ما وراء المحسوسات وفي عالم الطبيعة وجاءت أقوالهم حاوية لهذه المعاني حاملة مدلولها عند القوم الذين أخذوها عنهم .

وكانت السجلات والآثار متابعة لهذه الصورة ، فأثبتت الوثائق الموثقة أن العرب تسموا بها في أفراد قلائل منهم ، وكان من بين هؤلاء القلائل ، بعض رواة الحديث النبوي الشريف ، بل وبعض الصحابيات في صدر الاسلام من هؤلاء .

١ - حكيم بن حزام

وهو أحد الصحابة الأفاضل ورواة الحديث الأكابر ، وممن غلبهم تعلقهم بالله على كل ألوان الدنيا ، وعظيم مباهجها ، ومن كان حبهم لله يعلو بهم كل شيء ويقفز بهم لتخطي كل السدود ، وكان له موقف أول الأمر " وقد ألحف في سؤاله صلى الله عليه وسلم وآله لما قسم غنائم هوازن (١) ، وهو حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى ، هو أبن أخي خديجة زوج النبي صلى الله عليه وسلم وكان من سادات قريش وكان صديق النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة وكان يوده ويحبه بعد البعثة ، ولكن تأخر أسلامه حتى أسلم عام الفتح وكان من العلماء بأنساب قريش وأخبارها ، ولم يقبل شيئا من أبي بكر ولا عمر ولا عثمان ولا معاوية ومات سنة ٥٤ عن ١٢٠ سنة . (٢)

---

(١) الشريف الرضي - المجازات النبوية ص٦٣ تقديم طه عبد الرؤوف سعد مطبعة الحلبي .

(٢) الامام الشافعي الرسالة تحقيق احمد شاكر هامش ص ٣٣٥

روى حكيم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث ، وترجم له أصحاب التراجم ، وكتب عنه أصحاب السند ، وقد ورد فى الحديث الشريف " روى عن حكيم بن حزام رضى الله عنه قال :

سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعطانى ، ثم سألته فأعطانى ، ثم سألته فأعطانى ثم قال يا حكيم ، ان هذا المال خضر حلو ، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه باشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذى يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، قال حكيم ، فقلت : يارسول الله والذى بعثك بالحق لا أرزأ (١) أحدا بعدك شيئا ، حتى أفارق الدنيا . فكان أبو بكر رضى الله عنه يدعو حكيما ليعطيه العطاء فيأبى أن يقبل منه شيئا ثم ان عمر رضى الله عنه دعاه ليعطيه فأبى أن يقبله ، فقال (عمر) يامعشر المسلمين أشهدكم على حكيم ، أنى أعرض عليه حقه الذى قسمه الله له ، فى هذا الفئ ، فيأبى أن يأخذه ، فلم يرزأ حكيم أحدا من الناس بعد النبى صلى الله عليه وسلم ، حتى توفى (٢) رحمه الله تعالى ، وكان وفيا لما وعد بارا بمن عاهد . فعن حكيم بن حزام أنه قال " قال لى رسول الله ألم أنبأ أو ألم يبلغنى ، أو كما شاء الله من ذلك انك تبيع الطعام ، قال حكيم بلى يارسول الله ، فقال رسول الله ، لاتبيعن طعاما حتى تشتريه وتستوفيه " (٣) ، وكان حكيم معروفا عند العرب قبل الاسلام ، حتى ان مكانته بينهم كانت تمكنه من أن يأوى الى جواره من يريد ، وقد حفلت الدعوة الاسلامية بما لحكيم من مواقف ، وصار بعد ذلك واحدا من رواة الحديث النبوى ، كما كان واحدا من كبار الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .

---

(١) لا أرزأ : لا أسأل ، والتعبير بالرزء وهو المصيبة كناية عند تحسر حكيم على سؤاله الماضى ، فكأنه حمل ذنبا على كتفه وهو فاقته وألقاه على كاهل غيره كالمصيبة التى تقع ولا راد لها .

(٢) رياض الصالحين باب القناعة والعفاف والحديث متفق عليه .

(٣) الرسالة هامش ص ٢٣٦ تحقيق احمد شاكر .

٢ - حكيم الأثــــرم :

من رواة الحديث الشريف ، ذكر له الامام أحمد في مسنده ، وهو طريـــق لأبي هريرة رضي الله عنهما ، وعرفت به كتب الرجال والأسانيد ، ولم يجرح وكـان مستور الحال رقيق المشاعر .

٣ - حكيم بن جبيــر :

" قال الدارقطني وغيره متروك ، وقال النسائي ليس بالقوى ، ومشاه بعضهم وحســـن أمره " (١)

٤ - حكيم بن نافع الرقي :

" قال أبو زرعة ليس بشيء ، ووثقه ابن معين وابن حبان وغيرهما " (٢)

٥ - خولة بنت حكيــم :

صحابية جليلة سمعت الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ورونـــه ، وكانت صاحبة حكمة مشهورة وقول سديد ، ورأى صائب ، ولعل هذا من فضل الله عليها ، وكان أبوها ممن مارسوا الحكمة القولية والفعلية ، حتى انه لقن ابنتـــه ثقافة واسعة ، أخذتها الى حياض الاسلام فارتوت ، والى منبعه العذب فقــرت عينا ، وزاد حالها فمارست الاهتمام بالكتاب والسنة ، وعملت على مدارستهمـا ، والتبليغ لأحكام الله كسفيرة للمسلمين عند بني قومها ، ولا يفوتنا أن نذكر اهتمام الناس بالحكمة ، ووصف العقلاء منهم بها ، حتى صارت علما على بعضهم (٣) ومـا نذكره مجرد أمثلة لا نقصد بها الحصر ، بقدر ما نعطي المثال .

---

(١) الترغيب والترهيب في الحديث الشريف تعليق المرحوم مصطفى محمد عمارة ص ٥٦٩ المجلد الرابع ٤-ج - المرجع السابق

(٢) انظر الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية د / عبد الفتاح عبد الله بركة طبعة مجمع البحوث الاسلامية .

تكنى العرب بهـا :

لما كانت الحكمة ضالة المؤمن ، كانت كذلك لدى العرب قبل الاسلام يبحثون عنها ، ويعملون على أن يخلد ذكرها ويستمر أثرها ، فتسموا بها ، وتكنوا ، كما غردت بها بلابل أشعارهم ، وأهتزت لها أعطاف ألباب عقلائهم حتى كانت السمير عند الأنس ، والملاذ عند طلب الرأى ، والمهابة عند منازل الملوك ، والظلال الوارقة لدى رؤساء القبائل ، وأمراء العشائر ، ورجال الفزع والأمن ، لذا تكنوا بها ومن تلك السيدة :

* أم حكيم البيضاء — بنت عبد المطلب جد النبى صلى الله عليه وسلم . وهى أخت والد النبى صلى الله عليه وسلم — عبد الله بن عبد المطلب ، وعمته صلى الله عليه وسلم ، وقد عاشت بعد وفاة أبيها عبد المطلب وبكته بمرثيتها التالية ومما قالته فيها :

ألا ياعين جودى واستهلى	وبكى ذا الندى والمكرمات
ألا ياعين ويحك أسعفينى	بدمع من دموع هاطلات
وبكى خير من ركب المطايا	أباك الخيّر تيار الفرات
طويل الباع شيبة ذا المعالى	كريم الخيم محمود الهبات
وصولا للقرابة هبرزيا	وغيثا فى السنين الممحلات
وليثا حين تشتجر العوالى	تروق له عيون الناظرات
عقيل بنى كنانة والمرجى	اذا ما الدهر أقبل بالهنات
ومفزعها اذا ما هاج هيج	بداهية وخصم المعضلات
فبكيه ولا تسى بحزن	وبكى ما بقيت الباكيات (١)

---

(١) أبو محمد عبد الملك بن هشام ، سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ص ١٨٣ ، ١٨٤ مراجعة الاستاذ المرحوم الشيخ / محمد محى الدين عبد الحميد طبعة كتاب التحرير .

ولئن كانت أم حكيم البيضاء شاعرة عملاقة ، الا أنه يعنينا فى هذا المقام تكنيـة العرب بالحكمة ، ومن المعلوم أن الكنية ما صدرت بأب أو أم ، كأبى بكر وأبى حفص ، وكذلك أم حكيم فهذا واضح على أن الحكمة أصيلة عند العرب قبـل الاسلام وبعده ٠

ومن ورودها فى أقوال العرب قول " ابن عباس ، رضى الله عنهما ، كونـوا ربانيين حكماء فقهاء " (١)

وقد أستوفى الامام الغزالى فى احيائه الحديث عن الحكمة كقاعدة سلوكيـة وردت فى اللسان العربى ، والدلالة الاصطلاحية ومن يراجع الجزء الثالث يلاقيه ذلك مبثوثا فى غالبية أرجائه ٠

---

(١) الدكتور / الحسينى هاشم — أئمة الحديث النبوى ص ١١ طبعة مجمـع البحوث الاسلامية ٠

ورودها فى شعر العرب ونثرهم :

وردت الحكمة فى أشعار العرب ، دالة على العقل الناضج ، والرأى الراجح والتصرف السوى ، والخلق القويم ، كما أنها حوت مفهوما جديدا لامثيل له فى الفلسفة اليونانية ، مما يؤكد أصالتها ، ويرشد الى جدتها ، ونعنى به مطابقة الفكرة للسلوك ، وتآخى العلم مع العمل ، فاذا كان المشهور أن الفلسفة على العموم تقوم على التقسيم الشائع بين عملية ونظرية ، من خلال موضوع بحثها (١) ، فانها فى الاسلام تقوم على عنصرى التطبيق والفكر ، مما يسوّغ لها الامتياز عن أترابها من الفلسفات الأخرى .

من هنا فأن الحكيم هو الذى يقوم فى عمله ، على ما يريد له العلم السليم وأى علم ليست قواعده منضبطة ، هو علم غير سوى ، وبالتالى فالمنشود فى الفلسفة الاسلامية هو الحكمة القائمة على العمل المطابق للصواب فيما يقره الدين ، وهذا مالا يعرفه الفلاسفة الغير مسلمين ، على اختلاف اتجاهاتهم وأعنى بسلامة العلم انضباطه مع مصادر الشرع الاسلامى على قاعدة القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم .

ومن ورودها فى أقوال العرب :

قال زهير :

" قد أُحْكِمَتْ حكمات القد والأبقا " — بمعنى اجعل دابّتك محكومة بحيث لايصل اليك منها الا ما تبتغيه أنت .

وقال جرير :

" أبنى حنيفة أحكموا سفهاءكم — انى أخاف عليكم أن أغضبا "

بمعنى بصروهم وأجعلوهم على حكمة يأتيكم منهم الخير .

---

(١) راجع تاريخ الفلسفة اليونانية ، فى تاريخ الفلسفة اليونانية وعوض الله حجازى وآخر والفلسفة عند ارسطو ، وخريف الفكر اليونانى د . عبد الرحمن بدوى .

وقال النخعي :

" حكّم اليتيم كما تحكم ولدك "

بمعنى علمه الفهم الصحيح ، والعمل الطيب لتنال ثواب ذلك اليتيم .

وقال أبو نواس :

انى أنا الرجل الحكيم بطبعه ... ويزيد فى علمى حكاية من حكى

أتتبع الظرفاء اكتب عنهم ... كيما أحدث من أحب فيضحكا (١)

وقال أبو الأسود الدؤلى :

حسدوا الفتى اذ لم ينالوا سعيه ... فالقوم أعداء له وخصوم

وترى اللبيب محسدا لم يجترم ... شتم الرجال وعرضه مشتوم

وكذاك من عظمت عليه نعمة ... حساده سيف عليه صروم

فاترك مجاراة السفيه فانها ... ندم وغب بعد ذاك وخيم

فاذا جريت مع السفيه كما جرى ... فكلاكما فى جريه مذموم

واذا عتبت على السفيه ولمته ... فى مثل ما تأتى فأنت ظلوم

يا أيها الرجل المعلم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التعليم

تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى ... كيما يصح به وأنت سقيم

وأراك تصلح بالرشاد عقولنا ... ابدا وأنت من الرشاد عديم

لا تنه عن خلق وتأتى مثله ... عار عليك اذا فعلت عظيم

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فاذا انتهت عنه فأنت حكيم

فهناك يقبل ما وعظت ويقتدى ... بالعلم منك وينفع التعليم

لا تكلمن عرض ابن عمك ظالما ... فاذا فعلت فعرضك المكلوم

وحريمه أيضا حريمك فاحمه ... كيلا يباع لديك منه حريم (٢)

---

(١) العربى الكويتية العدد ٣٣٥ اكتوبر السنة التاسعة والعشرون ص ١٠٧

(٢) الامام الحافظ زكى الدين عبد العظيم بن عبد القوى المنذرى — الترغيب والترهيب من الحديث الشريف الجزء الرابع تحقيق المرحوم / مصطفى محمد عمارة — دار احياء التراث العربى ص ١٢٧ الطبعة الثالثة .

وهكذا بث الدؤلى الحكمة فى شعره دالة على الكياسة ورجحان العقل وانتصاره على نوازع النقص فى الانسان ، ومحاولة التكمل بالأدب العالى ، والخلق الايمانى السليم .

فى نثرهم وأمثالهم :

وكما جاءت الحكمة فى الشعر ، فانها تسللت الى حنايا النثر ، وصارت قرينة للمثل عند علماء المثل بل ان المثل صار جزء منها ، لأنه فى حقيقته قول قصير يؤدى الى معنى كبير ، بعبارة وجيزة فيها من الدقة ما يجعلها حقيقة يقاس عليها ولذا قيل على أمثال العرب انها حكمهم ، مثل أسأل المجرب ، فهو فى حد ذاته جملة انشائية ، حاوية معنى الأمر المعبأ بالاستفهام الاخبارى ، ومع ذلك فان الواقع يؤكد على أن من جرب شيئا عرف حقيقته ، ومثل ذلك قولهم " من ذاق عرف ، ومن حرم انحرف " قال المتنبى :

" وأتعب مَنْ ناداك من لا تجيبه   وأغيظ من عاداك من لا تشاكل

وقوله :

" وكم من عائب قولا صحيحا   وآفته من الفهم السقم

وقول البوصيرى :

واذا أراد الله فتنة معشر   وأضلهم رأوا القبح جميلا

وقول الراجز :

عند الرهان يعرف المضمار   ويعرف السابق والخوّار

وقول البارودى :

ولأن يعادى عاقلا خير   له من صديق أحمق

ورودها فى الأخلاق :

جاءت لفظة الحكمة ، جزءا من الأخلاق الفاضلة ، ووسطا يجمعها ، وعدلا يقومها ، فعُدّت من أمهات الأخلاق ، وأصل عن أصولها ، لذا فأمهات الأخلاق وأصولها أربعة ، الحكمة والشجاعة والعفة والعدل .

ونعنى بالحكمة هنا ، حالة للنفس بها يدرك الصواب من الخطأ ، فى جميع الأفعال الاختيارية ... وبالتالى فامهات محاسن الأخلاق ، هذه الفضائل الأربعة .... والباقى فروعها ، ولم يبلغ كمال الاعتدال فى هذه الأربع الا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والناس بعده متفاوتون فى القرب والبعد منه " (١)

والحكمة فى الأخلاق تعنى الكرم والمروءة ، والتوسط فى الأمور التى لا نص فيها للشرع ، وحبس المرء نفسه على ما ينخفض به نحو الدرك الأسفل ، وتبصير الناس بأمور دينهم ومعاشهم ، والأخذ بيد الضعيف لينال حقه من القوى ، ويجرى فيها المجاز كما تنال حظها الحقيقة ، من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه أبو هريرة رضى الله عنه .

" ليس الشديد بالصرعة ، انما الشديد من يملك نفسه عند الغضب (٢) وهو كناية عن رباطة الجأش عند ما يحتمل الغضب فى الصدر ، ويعمل الشيطان على اخراجه الى حيز التنفيذ .

والحكمة فى الاخلاق تعنى بروز شخصية المسلم ، عند ما يكون الخيار بين سخط الله وارضاء الناس فيفضل المرء ما يرضى الله على ما سواه ولعل هذا ما أشار اليه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله " ان الجنة للمحكمين " (٣) وهم الذين حكموا فى القتل والاسلام ، فاختاروا الثبات على الاسلام " (٤) ولم يقارنوا

(١) الامام / محمد محمد أبو حامد الغزالى — احياء علوم الدين جـ ٣ ص ٥٣ باختصار تحقيق د / بدوى طبانة طبعة احياء الكتب العربية .
(٢) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٧٠٤ واخرجه البخارى ومسلم وغيرهما .
(٣) نقلا عن اساس البلاغة للزمخشرى باب حكم .
(٤) الامام الزمخشرى اساس البلاغة باب الحاء مع الكاف حكم .

به غيره ، وهذه الأبحاث وحدها كفيلة بابراز جمال الفلسفة الاسلامية ، وبيان جدتها عن غيرها فى وقت يندر فيه الجد .

ثم ان الحكمة تأتى فى الفضائل من الأخلاق ، كما تزين الطيب من الأفعال وتعلى قدر الخير على ما سواه ، حيث ينطلق المتشبع بها الى أفعاله ، تزين خطوة وتنظم فعله ، وتغرس الأمل الشفيق فى سويداء فؤاد الرهب ، ولعل أبرز من وصل الى قمة الحكمة العملية والنظرية فى الأخلاق ، قبل البعثة — هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن ما بعد البعثة هو الوحى الالهى ، وليست حكمة العقل الانسانى ، وان كان ذلك داخلا فى الارهاص عند القائلين به ، ولنضع لذلك أمثلة

* فى حرب الفجار رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم (وكان ما يزال صبيا) أن الحرب المشتعلة بين هوازن وكنانة ربما يمتد الشرر منها فيصل للجميع الضرر ، فانضم الى ما انحازت اليه قبيلته ، وآزر أعمامه ، وجمع لهم النبل وأعد السهام حتى تمكن فريقه من الانتصار الذى وضع نهاية طيبة لحرب كان من المتوقع أن تمتد سنوات ، كحرب البسوس ، وداحس والغبراء .

* فى بناء الكعبة ووضع الحجر الأسود :

اختلفت مكة كلها باعادة ترميم البيت الحرام ، واجتمعت القبائل والبطون المكية كلها ممثلة فى زعماء وفودها ، واختلف القوم حول من يحظى بحمل الحجر الأسود الى مكانه ، فينال بذلك الشرف وتتبعه فيه قبيلته ، واستعر الخلاف ، وامتدت الأيدى الآثمة ، وتحركت النفوس المريضة للوقيعة بين القوم ، وكان لابد من حرب ضروس ، تفنى فيها الأنفس ، وتهلك الزرع والضرع ، وتهدر الدماء ويشتد البلاء ، واستعد الجميع لتلك البداية القاسية التى تليها حتما النهاية الأليمة .

ويلوح فى الأفق بزوغ حكيم ذى خلق كريم ، ليضع للحرب أوزارها ، ويحفظ على المتنافسين حقوقهم ويصون أموالهم وأعراضهم ، ويُبقى على أمن ديارهم وزرعهم وضرعهم ، فكان الفتى الكريم سليل النبوة الأولى سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله

عليه وسلم ،ويعرف القضية ، وأدلة كل الخصوم ، وشهود الاثبات والنفى ، ثم يخلع رداءه المبارك ، ويضع فيه الحجر الأسود ، ويطلب من المتنافسين أن يتقدموا جميعا ليحظوا بالشرف كلهم ، وتبتعد عن ديارهم نيران الحرب الرعناء .

ويستجيب الزعماء ، وينزل على رأى الحكيم الفرقاء ، وينحنى كبرياؤهم مع أبدانهم ويمسك كل منهم بطرف الثوب المبارك ، ويرفعون الثوب الذى احتضن الحجر الأسود ويسيرون به فى صبر وأناة حتى يبلغوا به مأمنه ، ومكانه من البيت الحرام ، وماتزال أيديهم رافعة الثوب ويتقدم اليهم الحكيم فيضعه فى المكان الذى خصص له ويعود المتحاربون الى ديارهم سالمين وقد قنعت نفوسهم ، وهدأت ثوراتهم ، وتأكدوا أن حكيما الى الخير قادهم ، وكان ذلك كله منه صلى الله عليه وسلم قبل البعثة النبوية ، والمنحة الالهية بالرسالة العالمية .

وصف العلماء بهـا :

لم تعدم الفلسفة (بمعنى الحكمة) الأنصار ، حتى فى الوصف بها ، فقد كان العرب قبل الاسلام يصفون القائم بمهمة علم الطب ومعالجة المرضى ، بوصف الحكيم ، سواء كان فى الطب الوقائى أو الطب العلاجى ، واستمر الحال على ذلك حتى جاء الاسلام ، وعاش هذا الوصف بين الناس حتى وقتنا الحاضر ومازال بعض الأماكن تصر على وصف الطبيب بأنه حكيم أو تسميته به .

وكان من هؤلاء ، أبو بكر الرازى ، الحكيم المسلم والفيلسوف المعروف والطبيب (١) الذى اشتهر بعلاج أمراض العين ، وقد حفلت الآثار بكثير من صوره المحفوظة ، وهو يقوم بمهمته فى فحص العين ، وتقديم العلاج لها ، مما يجعله بحق يتقدم الصاف ليؤكد فضل العرب والاسلام على الدنيا كلها .

وابن سينا الرئيس الشيخ ، الذى اشتهرت كتبه الطبية ، وبخاصة القانون والذى عرفته أوربا واستنارت بكتبه ، بعد أن ترجمت أغلبها ، وزادت شهرته عند ما قدم فى أبحاثه كيفية مثلى لعلاج قرحة المعدة ، والدقة فى تشخيصها ، ومازال شهرته تفوق الكثيرين ممن سواه (٢) رغم فارق الزمن ، وتقدم الأبحاث العلمية ودقة المعامل والآلات .

وأبو الوليد بن رشد ، والذى كانت أرجوزته مثالا يحتذى ، فى حمل الأم ووضع الطفل ، وكيفية العناية به ، والعمل على تنشئته بصورة مثلى والذى كانت كتاباته الطبية ، فتحا عظيما ، تسلل الى أحضان أوروبا النائمة ، فأيقظها من غفوتها ، وحركها من ركدتها ، فانطلقت به تفاخر الدنيا وتعلن أنها صاحبته وكانت الأندلس — الفردوس الاسلامى المفقود ، هى النافذة التى تسربت منها الى

---

(١) راجع / أبو بكر الرازى وفلسفته رسالة دكتوراه بكلية أصول الدين القاهرة ، وكذلك " فى الفلسفة الاسلامية منهج وتطبيقه د / ابراهيم مدكور) .
(٢) الدليل على ذلك احتفال الجامعات الاوربية بالعيد المأوى واستمراره .

أوروبا تلك الكتابات ، حتى صحت تسمية هؤلاء بالحكماء ، بمعنى الطب ثم أخذت الى معنى الفلسفة .

ومهما يكن من أمر الحكمة ، فانها فى تعريفاتها جميعا ، تنال معنى المعرفة الكاملة ، والعلم التام بما يمكن معرفته لخواص البشر ، غير الأنبياء ، لأن الأنبياء لهم معرفة أخرى مصدرها الوحى المعصوم وهى أرقى من الفلسفة بفارق كبير ، وان كان موضوعها مما يجرى للناس .

فمثلا مصدر المعرفة عند النبى ، هو الله سبحانه وتعالى ، بواسطة جبريل الأمين ، يرسله الله الى النبى من خلال طريق مأمون ، يعلم النبى من خلاله أنه موصول من الله وبالله . وما أصدق من قول الله تعالى " وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا ، أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء انه علىّ حكيم " (١)

أما موضوع معرفة الأنبياء ، عقيدة وشريعة ، فهو تعريف الناس بخالقهم العظيم جل وعلا والأخذ بيد المكلفين الى حيث يريد رب العالمين ، وتبليغ ما كلفهم به ، وألزمهم القيام عليه ، وتعريفهم باليوم الآخر ، وما يجب أن يكونوا على استعداد له ، وذلك كله يجرى للناس مجراهم كما يسير الناس فيه شوطا ، ومن هنا فان الحكيم فى تعريفه الواضح .

شخص آمن بالله ، وصدق بأنبيائه وكتبه ورسله ، وعمل قدر طاقته ، فسما بملكاته عن واقع غيره ، وأمده الله بنور من عنده ، فأدرك من مناحى الكون ، ما لا يدركه غيره ، وهو أقل درجات من النبى فى كافة النواحى ، وان كان يماثله فى الطبيعة البشرية فقط .

---

(١) سورة الشورى الآية ٥١

من ثم فان مايلقيه النبي من تكاليف لقومه ، هو مكلف بها ، فان اتبعوه وصلوا الى الخير في الدنيا والآخرة ، لأن الذى أرسله بها هو الله رب العالمين كما أن الوحي المعصوم هو الذى ينقل ذلك التكليف للنبي ، وبالتالي فان طريقة مأمون العواقب ، ومن خالفه فقد خالف أمر الله تعالى ، ويستوجب بفعله العذابْ

والحكيم ليس كذلك البته ، اذ أنه غير معصوم ، وليس كذلك النبي ، ثم ان ما يصل اليه من نتائج هي اجتهادات شخصية لاترقى بحال ما الى درجة الوحي، مهما كانت سلامتها ، بعكس النبي لأن نتائج الوحي مأمونة وصادقة ، وبرهانية أو أقناعية كما أنها ألزامية .

ثم ان مطيع الفيلسوف ، قد يَسْلَمْ وغالبا يضل ، اذا أخذ منهجه وحده ، بعيدا عن هداية الله ، أما النبي فان متبعه ناج باذن الله ، ولاحاجة له في الفلسفة بوجه عام أو خاص ، وان كانت تفيد ، في زيادة تأمل أو كثرة استدلال ، ولو بحث في كتاب الوحي لصار فيلسوفا على طريقة الاسلام .

ومع هذا فان تعاليم الفيلسوف ليست تكاليف عقدية أو شرعية ، يثاب فاعلها أو يعاقب من الله تاركها في الدنيا والآخرة ، كما هو الحال مع النبي ، وانما يمكن لواحد أن يعتنقها كفكرة ويرفضها سلوكا ، كالحال مع العقيدة المسيحية فانها لاتعدو أن تكون فلسفة مُقْنعة عاندها السلوك ، أو هي تعاليم فكرية ، أو أفكار تعليمية ، لكنها لاترقى بحال الى حقيقة الرسالة أو الوحي ولا تقاربه يقينا .

وثمة فرق هائل هو أن الفيلسوف لا يستند في أقواله الى الله تعالى ،النقل، الا في القليل النادر ، وفي مجال التأكيد لا الاستشهاد ، وليس كذلك النبي ، لذا أكدت على أن الفلسفة الاسلامية حقيقة مؤكدة ، وأنها موصلة الى معرفة الله تعالى بطريق التأمل ، ولكن التعاليم فيها والفيلسوف ، لايصلان بأى حال الى قريب من درجة الوحي أو النبي ، بل الوحي أكبر وأفضل ، والنبي أولى وأكمل والنتائج مع الوحي والنبي آكد وأسلم ، بل وأتم وأحكم " فأى الفريقين أحق بالأمن ان كنتم تعلمون " .

الفصل الثالث

(تسمية الفلسفة الاسلامية)

(تسمية الفلسفة الاسلامية بالاصطلاح)

نعنى بالاصطلاح أمرين :

الاول : ما أصطلح عليه غير المسلمين ٠

الثانى : ما اصطلح عليه المسلمون والمؤرخون المعتدلون للفلسفة الاسلامية

وما ذلك الا لأن كل طائفة يمكن التعرف على مبادئها من خلال القواعد التى تصطلح على تسميتها ، فغير المسلم ينظر الى الفلسفة الاسلامية بعين كارهة حتى لا يكون للمسلمين نوع من التفكير المنظم ، ولا نصيب من النظر العقلى الحر (١) ٠

خاصة وأن التفكير العقلى المنظم المسلم انطلق فى كل اتجاه ، وصار له من الذيوع والانتشار رصيد قل أن يجاريه مثله فيه ، ومن هنا نجد التعصب يفرض على صاحبه ، الكره والقبح ، والذم والشطح ، مما يجعل حكمه مردودا ، وشهادته باطلة ، وهذا ما عنيناه عند اطلاق الاصطلاح ٠

وهناك نوع آخر من التعصب ، لكل ما كتبه المفكرون المسلمون ، فيعجب بهم الى حد الوله ، ويصل به الأمر ، الى اعتبار كل ما كتب فى البيئة الاسلامية فلسفة اسلامية لا من باب البحث العقلى الحر ، واحترام القواعد والنصوص ، وانما من باب أنه محب وله ، وعاشق نار صدره مضطرمة ، وأولئك (كسابقيهم) لا يؤخذ لهم برأى ، لأن شرط الفلسفة عدم التعصب لرأى ، ما دام غير معصوم ٠

وقد وقع الخلاف بين المؤرخين للفلسفة الاسلامية فى التسمية ، التى يمكن اطلاقها على الأبحاث الفلسفية الاسلامية ، وهل يمكن أن تسمى فلسفة اسلامية أم لا ، مما حوته الكتب الفلسفية والكلامية ويمكن اجماله على النحو التالى :

---

(١) راجع فى الفلسفة الاسلامية منهج وتطبيقه ، د / ابراهيم مدكور ص ١٥ وما بعدها دار المعارف المصرية ٠

١ — الفلسفة الاسـلامية .
٢ — الفلسفة المسـلمة .
٣ — الفلسفة فى الاسلام .
٤ — الفلسفة العربيـة .
٥ — الفلسفة العربية الاسلامية .
٦ — الحكمـة القرآنيـة .

وقبل أن نناقش الآراء فى التسمية ، وأدلة كل فريق ، فهناك من يؤكد أن الفلسفة الاسلامية هى ، " النظرية الاسلامية ، وحلول الاسلام لمشاكل الطبيعة وما ورائها " (١) وحيث أن كلمة نظرية تعنى التجربة فى العلوم الطبيعيـة ، والتجربة ملاحظة علمية ، لم تصل بها النتيجة الى حد القانون ، فكان الأولـى أن تسمى النظرة الاسلامية للتفكير العقلى الحر .

ونبدأ بمناقشة الآراء فى التسـمية ،

الرأى الأول : الفلسفة الاسلامية .

أحب أن أدع هذا الرأى لآخر المطاف ، لعله يكون عند المقارنة أقوى .

الرأى الثانى : الفلسفة المسلمة .

يكاد التعريف أن يكون قاصرا على الفلاسفة المسلمين فقط ، وما لهم من مجهود فى هذا الميدان وقد يخالف تعاليم الاسلام ولا يدخل فيه غيرهم ، مع أن بعض غير المسلمين كتبوا عن الفلسـفة الاسلامية بنظرة موضوعية ، وبالتالى يكون التعريـف قد تجاهل حصاد سنوات طوال بذله غير المسلمين من فلاسفة ومفكرين لهم قدرهم فى الفلسفة على وجه العموم ، وفى الفلسفة الاسلامية على الخصوص فيكون التعريف غير جامع ، وهو لا يؤخذ به عند طلب توضيح المعرف المطلوب بيانه .

---

(١) الزميل : محمد عبد التواب السيد يوسف ، الصلة بين الفلسفة والتصوف عند ابن عربى ص ٢١٦ ماجستير بكلية أصول الدين — القاهرة .

الرأى الثالث : الفلسفة فى الاســـلام :

وهو تعريف قاصر وتعبير ضيق ، قائم على نظرة غير موضوعية لأن الاســـلام هو القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة ، على صاحبها أفضل الصلاة وأتـــم التسليم ، وكون ذلك العلم يطلقون عليه " فلسفة فى الاسلام " فان فيه تجاهـــلا لمكانة القرآن الكريم والسنة النبوية ، بأعتبار أن كلا منهما يحمل فلسفة ذاتيـــة حوتها نصوص كل منهما ، فالمتفلسف فى الاسلام على هذا المعنى ، كأنه يجـــد قصورا فى القرآن والسنة — وحاشا لهما من ذلك ، يحتاجان الى علاجه فيقـــوم هو به ، ولاشك أن هذا فيه من الغمز واللمز ما ينبو عنه ذوق المسلم المرهف الحس فضلا عن مسلم متدين يستحى من سماع مثل هذا ، عن القرآن الكريم ، أو الســـنة النبوية المطهرة .

ولعل أبرز من تساورهم تعاريفهم اطلاق هذه التسمية ، هم المستشـــرقون خاصة " ديبور " الذى كتب " الفلسفة فى الاسلام " (١) وسار خلفه من خدعوا فيه ، بجانب أنها نظرة عنصرية ليست قائمة على الموضوعية ، وانما على التعصـــب المذهبى البغيض ، ولما قام بها سلفهم ، فقد جاء الخلف يتابعون نفس الطريـــق الذى سلكه من قبل دعاة العداوة للاسلام .

ثم ان التسمية بالفلسفة فى الاسلام ، يوحى بالتقليل من شأن الفلســـفة الاسلامية ، بانحصارها فى مجال علم الكلام وهذا ما مال اليه بعض الباحثين ، وأن " نطاق علم الكلام شمل المذاهب الفلسفية الكبرى وعمل المسلمين الباهر فى تفسير الكون ، واكتشاف القوانين الوجودية ، وتوصلهم الى مفهوم للوجود والحركة والعلة " (٢) وهذا ما لانتفق معهم عليه بل ونرفض أن تسمى الفلسفة الاسلامية به .

---

(١) راجع الفلسفة فى الاسلام " ديبور " .
(٢) الدكتور / على سامى النشار — نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام ص ٢١ .

الرأى الرابـع : الفلســفة العربيـــة :

من الواضح أن هذه التسمية تحمل أوجه قصور عدة ، فهى غير جامعة ولا مانعة أما لماذا ؟ فلأن التسمية بالعربية غير جامعة لكل الفلسفة التى دونت فى رحاب الاسلام ، وسجلت بغير اللغة العربية ، بجانب

أنها لا تدخل فى حسابها الا البيئة العربية فقط ، سواء بفلسفتها أو فلاسفتها والفلسفة الاسلامية أشمل من هذا بكثير وأوسع .

ولا مانعة كذلك ، لأن باللغة العربية ، كتبت فلسفات ليست اسلامية ، بـل ولا تمت اليها الا فى الاشتراك اللفظى فى كلمة فلسفة ، وفى البيئة العربيـــة فلاسفة ليسوا على الاسلام بوجه من الوجوه ، من هنا يتضح أن التسمى بالفلســفة العربية ، يخرج كل الفلاسفة المسلمين غير العرب ، ويخرج الفلسفة الاسلاميـــة الغير عربية من دائرة التسمية ، مع أنها أصل من أصول الفلسفة الاسلامية .

فعلماء أصول الفقه ، وأكثر صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يكونـوا من أصل عربى ،ومع هذا أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنهم من خاصـته ، فقال عليه السلام فيما رواه عنه عمرو بن عوف " سلمان منا أهل البيت " (١) ومن المعلوم أن سيدنا سلمان رضى الله عنه ، كان من أصل فارسى ، وما سلمان الا فيلسوف على الطريقة الاسلامية ، طريقة القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

ثم ان الأئمة الأعلام مثل البخارى ، والغزالى ، والرازى وغيرهم لم يكونوا من أصل عربى ، ومع هذا لهم فى الفلسفة الاسلامية يد طولى ، وقدم ثابتة ، فالتسمية بالعربية تخرج هؤلاء منها وما أكثرهم ، وتدخل غير المسلمين فيها ، وما أكثرهـم ضررا ، اذن هى تسمية لا يمكن التعريف بها وأما الاحتجاج بقوله صلى الله عليـــة وسلم " ياأيها الناس : ان الرب واحد ، والأب واحد ، وليست العربية بأحدكـم من أب ولا أم ، وانما هى اللسان فمن تكلم العربية فهو عربى " فليس هذا بمكانـه ولا يعتبر دليلا على تسميها به .

(١) جمع الجوامع او الجامع الكبير حـ ١ ص ٥٤٦ اخرجه ابن سعد والحسن بن شعبان

ثم ان اللغة العربية والجنس العربى ، " كانا موجودين قبل ظهور الاسلام فهل كانت ثمة فلسفة عربية ؟ اللهم الا خطرات أخلاقية ، لاتصل الى كونها بناء فلسفيا ، أو تصورا للوجود ، الله ، والعالم ، والانسان ؟ " (١)

حقا عانى الجنس العربى ولغته ، من البحث عن حقيقة التوحيد وماهيته لكنه لم يبحث عن الفلسفة بشكل ما لأنه مجتمع غريزة التدين بلغت فيه شأوا وتطاحن القوم حول عبادة صنم ما ، بسببه تحدث المعارك ، وتشتد الخلافات ، كان يوجههم الى البحث عن التوحيد ، توحيد المعبود ، واقراره ، والدفاع عنه بصورة ترضى جميع الأطراف ، وهذا وحده كفيل بجعلهم أمة متدينة ، وفى نفس الوقت يشغلهم بالتوحيد ، وهو أرقى من التفلسف الذى كان مجرد البحث فيه اغراق فى بحور الضلال ٠

ولعل المطالع للفلسفات قبل الاسلام ، يلاحظ أن الله حمى العرب ، من انتشارها بينهم ، واذا تأملها بعناية ، وجدها موصلة الى الحيرة والاضطراب والقلق الذى لايؤدى الا الى الانتحار والهلاك والدمار ، نطالع ذلك بالفلسفة اليونانية ، فلسفة الشك والقلق ، والفلسفة الطبيعية ، فلسفة المادة الجافة والفلسفة السوفسطائية فلسفة الضياع الأخلاقى ، فلسفة الكذب والأوهام والجدل وفلسفة سقراط وتابعيه من الابيوريين والاثنيين ، فلسفة الخيال ، وانفصام عرى المودة ، وليس أدل على ذلك من فلسفة المُثل عند أفلاطون التى ماتت يوم ولدت ٠

وهكذا ، نجد الحال مع الفلسفة اليهودية على يد فلاسفتها الأوائل والأواخر صورة متكررة لما عند الطبيعيين الأولين ، لكن بلباس العصر الذى دونت فيه ، والمسيحية التى نجدها صدى لفكرة أفلاطون ، اللهم الا شذرات خرجت فيها وهى مكرهة ولاتسمى الا بهم ويمكن أن نطلق عليها فلسفة المتحررين من سلطان اليهودية والمسيحية فى المؤلفات والأبحاث الميتافيزيقية ٠

---

(١) ٣ ـ د / عبدالمعطى محمد بيومى الفلسفة الاسلامية فى المشرق والمغرب جـ١ص١

الرأى الخامس : الفلسفة العربية الاسلامية :

وتلك تسمية فيها نوع من التخصيص ، فهو تعريف مانع لكنه غير جامع ، فهو يمنع دخول الفلاسفة العرب الغير مسلمين ، ولو كانت كتاباتهم فى صميم الأبحاث الميتافيزيقية الاسلامية وعليه مآخذ عدة منها :

* أنه يعنى ما كتب من الأبحاث الميتافيزيقية باللغة العربية فى البيئة العربية فقط .
* أنه يخص ما كتب باللغة العربية فى البيئة العربية بيد علماء مسلمين فقط .
* أنه خصص تلك الأبحاث وقيدها بأن تناولها للموضوعات عولج بطريقة اسلامية فى رحاب البيئة العربية بلغتها ومن خلال علمائها .

ونحن نرى أن هذه التسمية لاتفيد ، لأن الفيلسوف المسلم الشهير / محمد اقبال ، ليس عربيا فى لغته ، لأنها فارسية أو أوردية ، ومع هذا له انتاج فكرى اسلامى فلسفى رائع ، وهو مسلم فى عقيدته ، ودونت أبحاثه بلغة موطنه ، وان كانت قد ترجمت فيما بعد الى اللغة العربية ، واللغات الاخرى . (١)

وقد تميز انتاجه الفلسفى بالجدة والابتكار ، مما يوضح أصالته كمفكر مسلم صاغ فلسفته فى الفيزياء على منهج الاسلام ، كما أن ديوانه الشعرى ، ينم عن رقة فى الذوق ، ودقة فى التعبير ، ورصانة فى الفكر ، مما جعل الاحتفال به يتجدد من خلال محبيه ، وتشاركهم فيه الهيئات العلمية ، وكثير من المجامع اللغوية ، والمؤسسات الفلسفية فى أنحاء العالم المعاصر .

---

(١) ترجم له ديوان اقبال ، وتجديد الفكر الدينى فى الاسلام وغيرهما ، كما كتبت عنه الدراسات فى مصر وغيرها من بلدان العالم الاسلامى ونال البعض بها ، درجات علمية منها ، محمد اقبال حياته وأدبه ، محمد اقبال وجهوده فى الدعوة الاسلامية ، محمد اقبال حياته وآثاره ، والاتجاه الفلسفى الاسلامى عند اقبال .

وكذلك الاستاذ / وحيد الدين خان ، من بلاد الباكستان الاسلامية ، وليست عربية وهو صحفى بارع ، ومفكر رزين ، وأديب ممتاز ، وفيلسوف صاغ فلسفته على قواعد ايمانية وداعية متمكن ، حتى انه فى نظرى ، فارس فى ميدان القلم نازل خصومه الالداء فصرعهم ، وحول التيار نحوهم فجرفهم ، وكان سبيله الى ذلك عديد من المؤلفات العلمية الفلسفية الاسلامية (١) تركها تحمل فكره . ولا شك أنها جابت العالم الاسلامى وغيره ، وقطعت فى سبيل غرضها الشوط الأكبر تصقل الكثير من عقليات المفكرين — المسلمين وغيرهم على السواء ، فاذا قطعناه عن الفلسفة الاسلامية نكون أهدرنا مجهودا طيبا لفيلسوف مسلم ، ظلمه قصْـر الفلسفة الاسلامية على اللغة العربية .

واذا طاولنا البحث نجد الاستاذ / أبا الأعلى المودودى ، صاحب الفلسفة الدينية الراقية يجاهر بمؤلفاته ، ويعلى صوته بأرائه الجادة ومجهوده الوفير ، مما يؤكد عمق أبحاثه ، وأصالة تفكيره ، وأحقيته فى التقدم لصاف فلاسفة المسلمين الباحثين فى الفلسفة الاسلامية .

ولا يغرب عن ذى بال ، أبو الحسن الندوى ، الذى تربع بفكره ، ونازل الكبار بعلمه وتألق عن أقرانه ، وكان سبيله الى ذلك ، ايمان بالله قوى ، وعقيدة بخاتم أنبيائه ورسله متينة ، وانطلاق من نصوص دينية ، يغوص بها فى أعماق البحار فيخرج أصداف الفكر ، ويجوب بها أرجاء الفضاء ، فيخلب لب العقل حتى انه ليعتبر واحدا من سراة القوم ، الذين أثروا فى الفكر الاسلامى ، وقدموا فيه بنصيب وافر .

وأولئك جميعهم فلاسفة على الطريقة الاسلامية وهم مسلمون ، ولكن لغتهم ليست العربية ولا هم من البيئة العربية ولا يستطيع واحد أن ينكر مجهوداتهم فى

---

(١) له على سبيل المثال / الاسلام يتحدى ، الدين فى مواجهة العلم ، المسلمون فى الماضى والحاضر والمستقبل ، الى غير ذلك من التى ترجمت الى العربية والتى لم تترجم بجانب صحيفته التى كان يشرف عليها ويديرها .

الفلسفة الاسلامية الا اذا أراد الوقيعة بين المسلم وأخيه ، والتسمى بالفلسفة العربية الاسلامية ، يؤدى الى تلك الوقيعة لامحالة .

الرأى السادس : الحكمة القرآنية .

وهو اصطلاح طيب ، وهدف نبيل ، لكنه يوحى الى الفصل بين مصدرى التشريع الاسلامى الاصليين عند المسلمين ، وهما القرآن الكريم والسنة المطهرة بجانب أنهما الحاكما ن على تفكير المسلم والقاضيا ن على سلامة أبحاث الفيلسوف المسلم أو عدم سلامتها ، فالتسمى بالحكمة القرآنية فيه نوع من القصور .

حقا ان القرآن الكريم هو كلام الله والسنة أيضا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو معصوم فيما يبلغه ، ولفظة الحكمة وردت فيهما — القرآن الكريم والسنة المطهرة — معا ، من هنا فان التسمية بالحكمة القرآنية ، لاتدخل فيها السنة النبوية مع أن فيها بيانا وتفصيلا لعقيدة المسلمين وشريعتهم ، كما أنها تحمل الكثير من القضايا الاسلامية ، التى تبحث فيها الفلسفة الاسلامية .

وقد أكد الرسول صلى الله عليه وسلم ، بطرق شتى على هذا المعنى ، فقال عليه الصلاة والسلام " تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما أبدا ، كتاب الله وسنتى " (١) ، وقوله صلى الله عليه وسلم " انها ستكون فتن كقطع الليل المظلم قالوا فما تأمرنا يارسول الله ، قال عليكم بكتاب الله وسنتى ، عضوا عليها بالنواجذ " (٢) وغير ذلك من الأحاديث النبوية الشريفة ، اذن فالأمر لم يعد مشكلة فى اطلاق تسمية بقدر ما يكون فى ذلك المسمى من كونه عاما شاملا ، أو جامعا مانعا فى جميع الأحوال وبالتالى ، فالتسمى بالحكمة القرآنية (٣) فيه قصور عن شمول السنة .

---

(١) جامع الاحاديث ٣ / ٥٧٩ أخرجه الحاكم عن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعا .
(٢) رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين .
(٣) ممن كتبوا فصولا مطولة فى الحكمة القرآنية الامام الرازى ، وهناك رسالة دكتوراه بكلية أصول الدين بعنوان الفخر الرازى والحكمة القرآنية فليطالعها من شاء .

الفلسـفة الاسـلامية :

لم يبق الا هذا الاطلاق ، على المباحث الفلسفية الاسلامية ، ونحن نناقشه على النحو التالى :

أولا :

أن هذه التسمية فيها من الشمول ، ما يجعلها تحتوى بشمولها كل ما كتب من أبحاث فى ظل الاسلام ، ومن خلال بنيه ، والمنتسبين اليه على حد سواء .

ثانيا :

أنه لا ينظر الى الجنس أو اللغة ، وانما ينظر الى الأصول التى تجمع تلك الأبحاث ويمكن مردها اليها ، ولا شك أنها أسلامية .

ثالثا :

انه قصد بهذه التسمية ، بيان أن الفلسفة الاسلامية ، هى كل ما أنتجته العقلية الاسلامية على أرض الله الواسعة ، سواء كان ذلك بواسطة المسلمين أنفسهم أو بواسطة المصادر التى هى أصول الاسلام عند المسلمين ، أو كانت معالجة القضايا فى نفس الاطار الذى عالج به الاسلام كل القضايا التى تعرض عليها .

رابعا :

أنه تفادى الاعتراضات التى أمكن ورودها على غيره ، وكانت سببا فى رفض الآراء السابقة عليه كل فيما يخصه من تسمية وغيرها .

خامسا :

أنه عالج مسألة الاطلاق من خلال مفهوم دينى ، ومصطلح اسلامى فكانت الفلسفة الاسلامية هى الاطلاق الذى أمكن قبوله وجمع المصادر والأبحاث ، ومنع غير الأبحاث الفلسفية الاسلامية من الدخول فى التسمية .

الفصل الرابع

(منهج الفلسفة الاسلامية)

تمهيـــد :

غلب على أفهام الكثيرين ، أنه لابد لكل علم من العلوم ، أو فن من الفنون ، من منهج يكون هو الطريق الممهد للمطلوب ، سواء كان ذلك الطريق عمليـا ، أو نظريا ، أو يستخدم الأسلوبين معا . من هنا عرفوا المنهج بأنه :

" الطريق الموصل الى المطلوب ، بغض النظر عن نوع المطلوب أو جنسـه " ولذا اختص كل فن بمنهجه ، كما احتفظ أصحاب كل منهج بخاصتهم ، سواء فـى تناولهم لقضاياه ، أو معالجتهم لها ، أو الاضافة اليها ، أو الانقاص من حجمها

ودائما يصطبغ كل منهج بصبغة هى الغالبة على أحوال القائمين به ، أو المناسبة للموضوعات التى يعالجونها ، فاذا كانوا رياضيين كان منهجهم عقليـا تجريديا ، واذا كانوا طبيعيين ، كان منهجهم عمليا ، واذا كانوا ميتافيزقييـن فلاسفة فان منهجهم لابد أن يكون كذلك ، منهج يقوم على أعلى طاقات العقـل وأكبر امكانيات العلم ، لأن ميدان بحثهم ليس تجريبيا تجريديا ، ولاتجريبيا فقـط وانما هو ميدان يبحث فى أمور لا وجود للمادة فيها أصلا ، كما لاحصانة فيهـا للعقل أبدا ، لأنها أبحاث ما وراء الطبيعة .

١ ـ المعقولات الكليـة المجردة .
٢ ـ المعقولات المتخيلة والمتوهمة .
٣ ـ المعقولات المنتزعـة ، أو بعبارة أخرى فانها تبحث فى :

أ ـ اللـه ، لا من حيث ذاته ، فهذا منهى عليه فى الحديث الشريف " تفكروا فى مخلوقات الله ولاتفكروا فى ذاته فتهلكوا " .

ب ـ الكون ، من حيث علاقته بالله .

جـ ـ الانسان ، من حيث عبادته بالله .

وتلك الأبحاث الميتافيزيقية ، هى التى نسميها فلسفة ، فاذ تقيدت بهدى من كتاب الله ، باذلة كل الامكانيات فى سبيل بلوغ الغرض ، موفقة بين نتاج العقل وصحيح النقل ، دون شطط أو غلو كانت فلسفة اسلامية .

وهى لاتبحث فى الله جل جلاله ، من حيث ذاته ، وانما فى (الفلسفة الاسلامية) من حيث اثبات الكمالات اللانهائية له جل وعلا ، واثبات صفاته من حيثيات تتوافق مع ما وصف نفسه به ، بغية الوصول الى غرض اسمى ، وهو تمكين معرفته بالنفوس ، واثبات بقائه وابديته وأزليته ، كل ذلك بما يناسبه جل وعلا .

* الكون : من حيث احتياجه لخالقه ، واشكال ذلك الاحتياج ، وحجمه وطبيعته ، واثبات وجوده اللاحق الذى يؤكد حدوثه ، أو قدمه النسبى وغير الذاتى ، أملا فى الظفر بما فيه من صفات نقص ، ومدعاة احتياج ، وبالتالى تصل من خلاله الى اثبات كمال الباقى جل وعلا ، ثم استقراره واستمراره ، وكمال تصرفه وهو كما يقولون بالاستدلال بالأثر على المؤثر ، أو الاستدلال بالناقص «(الكون) على الكامل وهو الله جل وعلا ، وبالتالى يتشعب البحث فى الكون الى كل جزئية فيه .

* فى الانسان من حيثيات عدة :

١ – من حيث عدمه السابق لوجوده ، وذلك دليل نقصه .
٢ – من حيث كماله العقلى ، والتكليفى ، ليصل الى خالقه العلى القدير .
٣ – من حيث أنه موجود فى الكون ، بل هو جزء منه ، واحتياج الكل الى الخالق جل وعلا ، دليل على احتياج الجزء – وهو الانسان – ، لذلك الاله الذى تعبده وأمره بالاستمرار فى تلك العبادة .
٤ – من حيث وجوده وعدمه وصيره فى الدنيا ، ثم بعثه وحشره ، ونشره وثوابه ، وعقابه وكيفية الوصول لذلك كله ، أو وقوع ذلك كله عليه ، بما

يؤكد أن الانسان مكلف ، وأن عليه البحث فى أسباب ذلك التكليف الذى يعد امتيازا له على غيره من المخلوقات ، بقدر ما فيه من العناية وما له من الاهتمام .

والبحث فى ذلك يحتاج الى منهج محدد ، واضح المعالم دقيق العبارة ، محكم البناء ، قويم الهدف ، وذلك ما تهتم به الفلسفة الاسلامية ، بل وتحمل على استمراره ، اذن هى : بحث عقلى فى الله ، والمبادئ العامة ونعنى بالمبادئ العامة أمرين :

الاول : العالم بخلائقه وملائكته .

الثانى : الانسان ما له وما عليه بداية ونهاية .

وما من شك فى أن الفلسفة الاسلامية ، قد حققت مهمتها فى المعرفة بالله والمبادئ العامة ، وبالتالى فان ذلك يعد فتحا كبيرا لها ، خاصة وأن الفلسفة الاسلامية قد ركزت جهدها لبيان المعرفة الكاملة ، مستخدمة القدرات العقلية موفقة بينها والنقلية فحصل لها بذلك الفعل ، الوصول الى ذات الحكمة لامحبتها فقط وهى العلم الكامل بالله تعالى والمبادئ العامة ، والحكمة فضل الله يؤتيه من يشاء ، متمثلا فى قوله تعالى " يؤت الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ، وما يذكر الا أولوا الألباب " (١)

اما ان اتجهت الفلسفة بأبحاثها الميتافيزيقية ، الى جناح العقل ،وخضعت فى كل قواعدها لمعطياته فقط ، وبحثت عن الله جل وعلا من حيث ذاته ، والكون من حيث أزليته وقدمه الذاتى واستمراره ، والانسان من حيث دلالته الفردية وامكاناته العقلية ، ودخوله فى دائرة المماثلة للأعلى ، وجحدت القضاء وأكدت على

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٩

عدم الفناء ، ونفت الحساب والعقاب ، والثواب ، وتمسكت بأن من مات فات ، وأن الرسل مجرد تجار عواطف ، والكتب المنزلة أوهام وهواجس ، فلا محالة أنها الفلسفة الملحدة ، سواء كانت يونانية ، أو سوفسطائية ، أو شكية أو واقعية ، أو غيرها من المسميات ، انها فلسفة كافرة بكل المعايير ونحن لانبحث فيها ، ولا نؤرخ لها ، ولا نتحدث عن منهجها ، انما الذى يعنينا هو الفلسفة الاسلامية فقط .

حقيقة المنهج :

طالما أن الفلسفة الاسلامية بحث عقلى حر ، يتجه بالعقل واليه فى كل شيء فان الغالب على منهجها أن يكون عقليا كذلك ، بيد أن النتائج فى الفلسفة الاسلامية ، لابد أن تخضع لمقياس الشرع ... وبالتالى فان منهجها ليس عقليا فقط ، كما أنه ليس نقليا فحسب ، ولذا اشتهر بين الباحثين فى الفلسفة الاسلامية أن الفيلسوف يبدأ فى الاستدلال ، ويجدّ فى سبيل الوصول اليه ، ثم فى النهاية الطويلة لاستدلاله يأتى دور جديد عليه ، ألا وهو دور الاعتقاد ، بمعنى أنه يستدل ثم يعتقد .

والاستدلال طريق عقلى محض ، الا أن الاعتقاد نقلى وعقلى ، من هنا فان الفلسفة الاسلامية تستخدم المنهج المزدوج الذى يبدأ بالبحث الجاد ، بغرض الوصول الى الاستدلال السليم ، ثم يأتى الأمر المسلّم أولا ، بحيث يكون كالنتيجة المرجوة التى يعرفها المعتقد أولا ، وتلك النتيجة هى ما نسميه بالنقل الصحيح وهذا ما نبسط فيه البحث .

أولا : دعائم المنهج الفلسفى الاسلامى .

يقوم المنهج الفلسفى الاسلامى على دعامتين أثنتين .

الاولى : النظر العقلى والاستدلال القرآنى .

الثانية : التأمل العقلى والتصفية الروحية والعقلية معا .

ولعل تلك الازدواجية المنهجية ، هى التى أوحت للبعض بأن " الدين والفلسفة لايختلفان ، لا من حيث الموضوع ولا من حيث غاية المذهب ، التى يختص به كل منهما ، فهما يبحثان ويعلمان حقيقة واحدة بطرق مختلفة ، ويخاطب كل منهما ملكات مختلفة عند الانسان " (١) .

---

(١) هنرى كوربان — تاريخ الفلسفة الاسلامية ص ٣٥٠ طبعة بيروت .

وسواء صح ما ظنه البعض أو لم يصح ، فالذى لا جدال فيه ، أن الفلسفة الاسلامية اصطنعت لنفسها منهجا عقليا خالصا ، ثم دعمته بالنقل الصحيح ، لما ثبت عندهم من أن صحيح النقل لا يخالف صريح العقل بل يؤيده ، ولم تجسر الفلسفة الاسلامية — على أيدى المسلمين — أن تخالف النقل بحال من الأحوال وبخاصة النقل القطعى الدلالة ، لأنه بمثابة رصيد ثابت لغيره يقاس عليه مثله ، ولا يستقل بحكمه ، كالحال مع النقل الظنى الدلالة ، وذلك ما سنوضحه فى حينه باذن الله تعالى ٠

ثم انه من المعلوم ، أن الفلاسفة المسلمين ، فى جهودهم التوفيقية بين نصوص النقل وصريح العقل — قد عمقوا منهجهم الى الحد الذى أوقع ببعضهم بها ، الى تجاوز الفهم المباشر للنقل ، ومحاولة الغوص فى الداخل ، حتى حدا ببعضهم الى محاولة لىّ النص الدينى الثابت ، ليوافق نتائج العقل الصريحة وبمعنى آخر ، أن بعضهم لوى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، قسرا ليجذبها الى مفهوم العقل الذى استقر عليه وآمن به ٠

الا أن هذا العمل لم يكن من كل الفلاسفة المسلمين ، وانما كان بارزا فى انتاج الفيلسوفين المسلمين (الفارابى) وابن سينا — ولعل ذلك كان من أسباب نقمة الغزالى عليهما بالذات ومحاولته الدائمة فى التشهير بهما والعمل على تكفيرهما ، ونسبة الضلال الى انتاجهما ، وقد برع فى هذا المضمار وبلغ ٠

ولا يعيب الفلسفة الاسلامية استخدام منهج عقلى مدعم بالنقل ، فذلك شأن الفيلسوف المسلم ، الذى أمره دينه بالبحث فى كل شئ ، حتى سمح له أن يتخيل المغيبات ، وان كان لن يصل اليها (كحقيقة) الا فى عالم الآخرة ، يوم تنكشف الأشياء ، ولا يبقى فى الصدور ما تكنه ، أو تواريه ٠

سـؤال وارد :

وهنا يرد سؤال مؤداه .

- اذا كانت الفلسفة الاسلامية ، تعتمد على النقل وتعول عليه ، كالحال مع علم الكلام في الاسلام ، فما الفرق بينهما في المنهج ؟

والجواب :

أن علم الكلام في الاسلام يقوم على النقل أولا ، سواء بطريق مباشر ، أو عن طريق التأمل ثم يأتي دور العقل فيبلور ما استفاده من النقل ، بمعنى أن عالم الكلام من ناحية المنهج ، يعتقد أولا ثم يستدل ، وتلك خصيصة علم الكلام في الاسلام ، النقل أولا والعقل ثانيا .

أما منهج الفلسفة الاسلامية فانه يأتي أولا بالعقل الصريح ، ويأخذ مقدماته ونتائجه ، ثم يعرضها بعد ذلك على النقل للاستيثاق ، فاذا ما توافقا فيها والا قام بدوره في جذب أحدهما للآخر ، ليتم التوفيق الذي هدف اليه ، وذلك لأن الفيلسوف يستدل أولا ثم يعتقد ثانيا ، وذلك ما يميز البحث في الفلسفة الاسلامية الأخرى ، ويفارق بينها والفلسفات الالحادية .

ولعل بروز الدور التوفيقي لدى فلاسفة المسلمين ، في أبحاثهم الميتافيزيقية قد شجع البعض على اتهامهم بأنهم مجرد نقلة من اليونان ، وأن مجهودهم الفلسفي لا يعدو أن يكون مجرد توفيق بين الانتاج العقلي اليوناني ، في جانبه الميتافيزيقي ، وبين نصوص الدين الاسلامي ، وتلك لا محالة تهمة يقول بها مَنْ لا يعرفون حجم المشكلات الفلسفية الاسلامية ، ولا يعلمون أن القرآن الكريم والسنة المطهرة ، قد دفعا الى مباشرة التفكير العقلي الحر ، في أدق الأشياء الملموسة لنا أو المدركة بأثرها كالروح في قوله تعالى " ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا " (١) .

---

(١) سورة الاسراء الآية ٨٥

وليس البحث فى الروح الا سلوك عقلى حر ، تنبه اليه الآية ، وتدفع الى البحث فى أعماقه ، خاصة اذا جاءت الروح فى القرآن الكريم والسنة المطهرة بمعان مختلفة ودلالات متعددة ، ثم ان قوله تعالى " وما أوتيتم من العلم الا قليلا " جذب للأنظار ، وشحذ للأذهان ، أن تنال كثيرا من العلم بالنظر والبحث والتأمل ، وذلك كله مدخل الى تفكير عملاق ، يستخدم منهجا عقليا حرا وهو ما نسميه الفلسفة الاسلامية .

وقد يعتقد البعض أن منهج الفلسفة الاسلامية ، مادام يقوم على العقل ويأنس بالنقل ، فهو مقدور لكل الناس ، ولكن اذا نظرنا الى كل الناس لن نجد قدراتهم العقلية ، فى تناول الميتافيزيقا على قدر واحد ، بل ربما نجد واحدا يستمر فى اجهادها العقلى ، ويجد لذة فى الاستمرار تحت وطأة المعاناة بغية الظفر بالحكمة ، ونجد آخرين لا يستطيعون مباشرة أسبابها ولا المواصلة لمعالجة قضاياها ، انهم لا ينظرون اليها بعقل قادر على الخوض الدقيق ، وتلك ملكات ، والناس فيها درجات وسبحان الله رب العالمين .

ثم ان منهج الفلسفة الاسلامية بجانب أنه ليس حكرا لأحد ، ولا حجرا على أحد ، فانه كذلك ليس (كما يعتقد البعض) ـ سُلّما واحدا ، اذا أدى بانسان الى حقيقة ، فان نفس السلم ، أو نفس المنهج العقلى ، قد يؤدى بآخر أو آخرين الى نفس الحقيقة (١) أما لماذا ؟

فالجواب :

أن السُّلم الفلسفى المنهجى ليس قاعدة عامة ، يمكن أن يتناولها كل من يحب أن يتفلسف ، وانما هو عام فى أنه بحث عقلى حر فقط ، نبهت اليه آيات الذكر الحكيم ، والسنة المطهرة ، دون أن ترسم معالم محددة يسير عليها الباحث فيها

---

(١) الدكتور / عبد المعطى محمد بيومى الفلسفة الاسلامية فى المشرق والمغرب ، ط ١ ص ٥٥ دار الطباعة المحمدية بالقاهرة .

فمثلا قال الله تعالى " قل انظروا ماذا فى السماوات والأرض " ولم يحدد نقطة البداية للنظر ، ولا الطريق الذى يجب عبوره ، ولا البدهيات أو الكليات ، أو المسلمات التى يجب البدء بها ، من هنا فاننا نؤكد على أن المنهج الفلسفى تغلب عليه النزعة الفردية ، أكثر من الجماعية ، فعلى سبيل المثال ، تقدم ابن سينا بمنهجه الفلسفى حتى وصل الى نقطة حاسمة ، أصابت منه المقتل (على الأقل لدى خصومه) .. ألا وهى مسألة الشكل النهائى للمعاد الجسمانى ، وهل هو نفس الجسم ، أم غيره ، الى آخر ما أفاضت فيه الدراسات ، ثم جاء ابن رشد ، فاستخدم منهجه ، وتقدم به فحل المعضلة دون جهد أو معاناة ، مدللا على ما انتهى اليه ، بالعقل ثم تأكيد النقل ، وأنه مادامت القيامة ، على أرض غير الأرض ، من قوله تعالى " يوم تبدل الأرض غير الأرض ، والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار " (١) فان ذلك لا يمنع أن تكون الأجساد أيضا غير الأجساد ، وان كان يقع عليها الثواب والعقاب .

فاذا قلنا أن سلم الفلسفة واحد ، اذا أدى بآحاد الناس الى حقيقة ، فانه قد يؤدى بآخرين وقصدنا بعد التأكيد ، فان ذلك الكلام يكون على عمومه غير موصل الى الهدف من الفلسفة الاسلامية كمنهج ، ثم ان الفلسفة دائما تبحث وهى لا تضع نتيجة الا وتبدأ بعدها بسؤال ، كأنه ينقضها ، وبالتالى فان ما تعتبره حقيقة فى غيرها ، لا يمكن اعتباره فيها كذلك ، لأنها لا دوام لها ، وهى لا تسلم الا بحقيقة واحدة ، هى رب العالمين جل وعلا وما يستتبع ذلك .

---

(١) سورة ابراهيم عليه السلام الآية ٤٨ .

الباب الثالث

دور علم الكلام في العصر الحديث

الفصل الأول

ضرورة وجود علم الكلام فى العصر الحديث

تمهيـــد :

أجل لابد لكل علم من دور يؤدية ، صغيرا كان الدور أو كبيرا ، ولما كـان علم الكلام فى الاسلام ، قد شغل حيزا كبيرا ، وتناول قضايا عديدة ، وفتـــح الأبواب على مصراعيها لآراء جديدة ، فانه قد أدى دوره فى الماضى — علـــى الوجه الذى قصد به ، وبالقدر الذى تحقق ، على المنحى الذى اتبع .

ورغم أنه قد وضع اجابات محددة لأسئلة عديدة ، فانه أثار أسئلة جديدة ، وأبرز علامات عديدة ، كأنه يعيد الماضى من جديد ، غير أن أبرز تلك الاسئلـــة وأشدها عسرا عند الاجابة عليها ، هو هذا السؤال ، هل يصلح علم الكـــلام فى الاسلام ، ليؤدى دوره السابق ، وعلى النحو الأمثل فى هذا العصر ، ومـــا يليه من الأعوام .

واذا كانت الفلسفة الاسلامية بما لها وما عليها ، قد شدت الأفهام وجذبت اليها العديد من الأذهان ، وحركت بيديها مهد الفكر الانسانى فزلزلته وانحنى على عذب أنهارها جهابذة الفكر ونوابغ العلم ، حتى كانت فى الماضى صورة مشرقة أو علامة يائســة ، يهرع اليها أهل الفكر العميق ، ويغوص فى أعماقها أهل الذوق الرقيق ، فهل تستطيع تأدية هذا الدور فى الوقت الحالى ، وما يستجد من أعوام .

ثم انه اذا كانت الفلسفة الاسلامية ، قد كشفت عن جمال خلاب فى الفكـــر الاسلامى وتناولت العديد من القضايا الدينية البحتة ، بطريق عقلى يوائم بينـــه وبين النصوص النقلية مفجرة بأبحاثها أحشاء الماضى التليد ، منتزعة من رحمه أعز وليد ، فانها لاشك قد أدت دورها على الوجه الذى رامه لها أهلوها ، ونام عنه حاقدوها ، الا أن هنالك سؤالا يفرض نفسه فى تكبر وعناء ، وهو هل تؤدى — الفلسفة الاسلامية دورها فى العصر الحديث على الوجه الأكمل ، ذلك ما سنعمل على ابرازه فى هذا الباب بمشيئة الله تعالى وعونه .

وجـه الضــــرورة :

اذا كان علم الكلام فى الماضى ، قد عنى بتقرير العقائد الايمانية وعلـــى الأخص عقيدة الاسلام — والدفاع عنها فى مواجهة الالحاد بكل ألوانه ، وكافـة أشكاله ، وقد أحرز انتصارات واسعة فى مواجهة المناهج الجدلية بكل ما تملـك كما أن المؤلفات فيه ، قد خاطبت العقل ، وناقشته ثم أوقفته على باب ان طرقـه عرف الحق بالعقل ، بعد أن اطمأن للنقل ، الذى ثبتت صحة نصوصه ، فان عليه فى الحاضر الاضطلاع بنفس الدور .

ولم تحرم المؤلفات فيه فى الماضى من استخدام كل المناهج المتاحة ســواء استعملها الخصوم أم جعلت رهن الاستعمال ، فمثلا استخدم علم الكلام بمؤلفاته فى الماضى المنطق الصورى ، وتم استحداث منطق خاص بالاسلاميين ، هو علـم الأصول — أو المنطق الاسلامى ، وناضلوا بالمنطق الجديد ، منطق الخصـم القديم . (١)

وقد كونوا لأنفسهم فلسفة خاصة ، تقابل فلسفة خصومهم عرفت بالفلسفـة الاسلامية فى كل من الأبحاث والموضوعات ، وطريقة معالجتها لقضاياها ، وكانت المؤلفات فى علم الكلام ، تحفل بالعديد من الأبحاث المنطقية والميتافيزيقيـة ، داخل القضايا الكلامية ، وحسب ما اقتضاه الظرف ، ومعاملة الخصم ، ولذلك لـم نجد فى كتب المتكلمين القدامى ، مَنْ لم يجعل الأبحاث المنطقية والميتافيزيقيـة ضمن المؤلفات الكلامية ، اللهم الا النذر اليسـير .

فاستخدم علم الكلام الجوهر والعرض والكل والجزء والدلالة ، وهى كلهـا أبحاث منطقية ، ودخلت تلك القضايا كجزء من الاستدلال ، على وجود اللـه

---

(١) راجع مناهج البحث عند مفكرى الاسلام .

وحدوث العالم أو اثبات الصانع ووجود المدلول ، وامتلأت المؤلفات الكلامية بتلك القضايا ، وجعلت مقدمات مطولة وصولا للدفاع عن العقيدة الاسلامية ورغبة فى كل اجزائها ، والجام الخصم بالحجة ، وانزاله الى فطان الوهم بدلا من ابتدائه طريق الشك (١) ، من هنا فقد حشدت الكتب الكلامية بتلك الابحاث المنطقية الميتافيزيقية ، بحيث جاء وقت كان التميز فيه بين كتب الكلام والمنطق والفلسفة صعبا الى حد كبير وقد ظهر ذلك بصورة عامة فى مرحلة الاختلاط (٢) ، الا أن ذلك كله لم يمنع علم الكلام من القيام بواجباته التى كلف بها فى ذلك الحين أما الآن فان الوقت اختلف والفكر لم يعد هو بصورته التى كان عليها فى الماضى ، ولذا فان دور علم الكلام الآن ، ليس التقرير والدفاع فقط للعقيدة الايمانية بل ونقلها الى ساحة غيره ، مع الاستعداد التام لاثبات أحقية الايمان عليها بالاعتناق ، وعلوه على ما سواه ، وذلك يوجب استخدام وسائل تواكب العصر الذى يقع الاسقاط فيه ، ومع القوم الذين يتمكنون من استيعابه وعلى الصورة المقربة الى أفهامهم ، ولا يفوز المنطق بهذا الدور ان جاء وحده فى الميدان ، أو عانقته الفلسفة بصورتها القديمة .

---

(١) راجع فى ذلك الشامل فى أصول الدين لامام الحرمين ، والاقتصاد فى الاعتقاد للامام الغزالى ، والمواقف لعضد الدين الايجى ، والمقاصد لسعد الدين التفتازانى ، والمغنى للقاضى عبدالجبار المعتزلى .

(٢) هى المرحلة التى تلت هجمة الامام الغزالى على الفلسفة والفلاسفة ، فى مؤلفاته الشهيرة ، مقاصد الفلسفة ، تهافت الفلسفة ، وسلطان العامة ، وتأثير رجال الدين ، ومحاولة الحكام أرضاء الرأى العام .

اذ ن علم الكلام القديم بمناهجه وطرق معالجته لموضوعاته لم يعد كافيا فى هذا العصر ليؤدى دوره على الوجه الأكمل الذى يراد به ، وأمثل صورة له لم تعد قادرة على ايصال الايمان لنفر قليل فى ظل عصر سادت فيه المادة وتقدمت العلوم العقلية ، فغزت الفضاء ، وجابت أركانه ، وتعرفت على كل ما فى أرجائه من خلال تطوافها المستمر فى كل مكان فيه . (١)

وعندى أن العودة لكتاب الله تعالى — القرآن الكريم — والسنة المطهرة فى اثبات العقيدة الايمانية وتقريرها والدفاع عنها ، هو الطريق الأمثل ، لأنه طريق قرآنى صالح لكل العصور ، ونافع لكل الأزمان ، ليس فيه للزعم أدنى نصيب وانما هو حق كله ، صدق كله ، قطعى الدلالة فى العقيدة كلها ، بحيث لا اختلاف فيها ، ولا تردد حولها ، وهو يسر فى كل جوانبه ، وأقصر فى كل طرقه بيانا للمراد .

---

(١) يحلو لنفر قليل تملق القديم ، وبالتالى يحاولون اجهاض أية محاولة لبعث الجديد ، ومن هنا فان صراخ بعضهم سوف يعلو ، بل وسيجدون للبحث عن اتهامات يصوبونها للباحث ، وعذرى أننى قدمت مالم تفهمه أفهامهم ولم تعقله عقولهم ، ولست أرفض القديم جناية عليه ، بل لأن أغلبه انتهى دوره ، ولم تعد الحاجة اليه فى هذا العصر ، مثل ما كانت فى الماضى وهو يمثل نضجا فكريا واكب عصره .

الفصل الثانى

كيف يؤدى علم الكلام دوره فى العصر الحديث ؟

كيف يؤدى دوره فى العصر الحديث ؟

نعم قد أدى علم الكلام دوره فى الماضى ، لكن ما هى الطريقة المثلى ليؤدى دوره فى العصر الحديث ؟

والجواب :

أن القضايا التى تعرض لها علم الكلام فى الاسلام قديما ماتزال هى ، هى غير أن الناظرين اليها ليسوا هم الذين توجهوا اليها فى الماضى – بحكم ثقافتهم ، وظروف حياتهم ، من هنا وجب أن تتغير طرق المعالجة ، ليؤدى علم الكلام دوره بصورة عامة ، وطرق المعالجة عملية فيها من المرونة ما يجعلها قوية وجذابة ، وقد فطن لذلك كثير من المسلمين الذين وهبوا حياتهم وفكرهم لقضية دينهم ، فاهتموا بطرق المعالجة ، وكان لهم بذلك العمل فضل السبق (١)

فاختاروا مناهج تساير ركب العلم المادى ، وحاولوا التقريب بين ما يهدف اليه العلم ، وما يرشد اليه الاسلام ، وجعلوا النظريات العلمية المعقدة خادمة لاثبات دين الاسلام ، وتقرير عقيدة التوحيد ، واثبات رسالة الرسول ، والوصول الى توقير اليوم الآخر ، واعتباره واقعا ملموسا فى عالم الغيب المكنون ، بل وجعلوا أغلب قضاياهم مبتدئة بالاثبات الضرورى لوجود الله تعالى ، مما جعل الناظرين اليها فى هذا العصر ، يجلونها ويرون فيها المهابة والجلال .

فالاستاذ وحيد الدين خان ، يحاول جذب الأنظار الى مؤلفه ، فيضع له عنوانا فيه التحدى واضحا ، فهو الاسلام يتحدى – يريد بذلك اثبات أن الاسلام هو الدين الخالد ، وأنه يتحدى من يثبت عكس ذلك أو يحاوله ، بل انه كمؤلف

---

(١) فعل ذلك المرحوم ، وحيد الدين خان فى كتابه " الاسلام يتحدى " والمرحوم الدكتور العهواوى فى كتابه " الاسلام والعلم فى العصر الحديث ، ونخبة من العلماء سجلوا كتابهم " العلم يدعو للايمان " والامام محمد عبده " رسالة التوحيد والشيخ جمال الدين الافغانى " فى الرد على الدهريين " والشيخ عبدالمتعال الصعيدى فى كتابه " لماذا أنا مسلم " والشيخ نديم الجسر فى كتابه " قصة الايمان بين الفلسفة والعلم والقرآن " وبيولوجية الايمان للدكتور / محمود عبدالقادر وكثيرون غيرهم

عرف كيف يتناول القضايا العلمية ، من خلال منظور اسلامى جعلها طوع ارادة علم الكلام ، فبدأ بالألوهية ، ثم الضرورات التى توجبها ، وبيان أن لها من صفات الجلال والكمال ما يجعلها تنفرد وحدها فى كل ما توصف به ، ثم بالرسالة وأنها منحة من الله لا جبر ولا عبث " ثم انتهى الى تقرير اليوم الآخر ، لينال كل جزاء ما قدمت يداه .

وما من شك فى أن ذلك المنهج العلمى الذى التزم به المفكر المسلم "وحيد الدين خان " قد كبح جماح النظريات العلمية بقسميها ، النظرى — الرياضة ، والعملى — الطبيعة وتوابعها ، مما جعلها تركع فى رحاب حصانة الاسلام ، بدل أن تعلن التمرد عليه ، أو تتعالى فى اعتزازها بعيدا عنه ، كل ذلك بطريق يسير هو الى الاستدلال بالقرآن الكريم أنسب ، وبالتالى فقد واصل العالم المسلم انتصاراته فى هذا الميدان ، وكانت صحيفة " الجيزويت التى عمل بها ميدانا فسيحا له ، مما حدا به الى اصدار مؤلفاته فى هذا الميدان على التوالى ، وكانت فتحا كبيرا لميدان أغلق طويلا ، ألا وهو كيفية الاستفادة من علم الكلام الاسلامى فى الوقت الحاضر .

ومن المؤسف حقا أن يبادر أستاذ بكلية أصول الدين القاهرة ، الى اثارة المشاكل حول عقيدة وحيد الدين خان (بدل أن تستفيد منه) دون أن يقابله أو يتلقى عنه ، كل ما فى الأمر ، أن فى صدره شيئا هو رجم كل العلماء النابهين طالما أنه ليس منهم ، والذى يزيد الأمر مرارة ، أن ذلك الأستاذ لم يؤلف طيلة حياته التى قضاها فى هذا الميدان الا نتفا جمعها من كتابات غيره ، ونسبها لنفسه ( ) وليته تناول الرجل موضوعيا ، أو حتى بالتأليف شفويا ، وتتلخص جملة

أوهامة على الرجل فى :

١ ـ أنه كذاب فى عقيدته ، وأن عقيدته ليست ما عليه السلف .

٢ ـ أنه عميل للمخابرات الانجليزية فى وقته .

٣ ـ أن ما كتبه لايمثل شيئا فى الدين أو العلم .

وكأنى بهذا الذى يقدم على الانتحار العلمى ولايكاد يبين ، فالرجل الأول سلمت عقيدته ، وبرئت من النفاق ساحته ، وكان جنديا من جنود الاسلام الموهوبين فارسا بقلمه ، واثقا من دينه ، لم يجرؤ واحد من أعدائه على اشاعة ذلك عنه ، مع بحثهم عنها ، ولو وجدوها ما سكتوا ، ثم ان الرجل فى كل ما كتب كان أمينا يشير الى موضع النقل ويترك مكان الاستنتاج ، فما هو العذر الذى لايقبل منه فى ذلك مع أن الواهم فاقه فيما عابه به .

بل ان وحيد الدين خان " فى كتابه الدين فى مواجهة العلم ، أثبت جدارته للوصف بأنه عالم من علماء الاسلام ، وبالأخص فى علم الكلام ، الذى نحن بصدد بيان فائدته فى الوقت الحاضر ، ومؤلفاته المتتابعة فى هذا الشأن دليل واضح على ذلك الذى استقر فى الأذهان عن وحيد الدين خان مع الاحاطة بأن الزمان كفيل برد مثل هذه السقطات فى وجه أصحابها ، وتسوية حساباته معهم على الوجه الذى أرادوا أن يسوموه غيرهم .

من ثم فان لامحالة من استخدام علم الكلام ، فى هذا العصر العلمى المادى لكن بصورة أخرى غير التى دأب عليها البحث فى القديم ، وانما لابد من الاستفادة به فى كل جوانبه ، قديما وحديثا ، حتى يؤدى الغرض المنشود منه ، والأمل المعقود عليه ، وماذا عليه لو استخدم البحث فى الآيات القرآنية ، واستخرج منها بالفتوحات الالهية ما يعد أسسا واقعية ، ومناهج علمية وعملية .

فمثلا أتى القرآن الكريم بهالة من العلم ، فى آية منه ، هى قوله تعالى : " والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون " (١) وما أشار اليه القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا فى الآية الكريمة هو ما أثيرت حوله المشاكل الجدلية والفلسفية والكلامية قديما وحديثا ، وعرف باسم " الأفكار الفطرية " (٢)

فاذا ما قام باحث باثبات أن القرآن الكريم ، كتاب الاسلام الخالد ، قد سبق كل هؤلاء فى بيان ذلك الفهم الدقيق ، فان ذلك حتما سيمثل فتحا كبيرا (٣) ولا أقصد أن يقف باحث أمام النظريات العلمية ثم يوفق بينها وبين نصوص القرآن الكريم ، فهذا ما لا أرتاح له ، فضلا عن أن نتائجه غير مأمونة ، بما أنه ينزل القرآن الكريم والباحث فيه ، منزلة المتلهف لأسباب ما ان تبدو حتى يسارع بالصاق نفسه اليها ، أو نسبتها اليه ، وهذا كله لايليق بالمسلم ، فما بالنا بكتاب الله تعالى .

وقد أحسن الاختيار فضيلة المرحوم الاستاذ الدكتور / سليمان سليمان خميس فبادر الى ذلك المنهج وألف كتابه القيم فى هذا الباب (٤) حيث قدم له بمقدمات ثلاثة هى :

---

(١) سورة النحل الآية ٧٨

(٢) نظرية الأفكار الفطرية ، تقوم على أساس من الصراع بين فريقين يتنازعان ، الأفكار الفطرية فريق يرى أن الانسان يولد ولا معرفة له ، ولا أفكار فطرية لديه ، وأن الرضيع يلقم ندى أمه عن طريق الرغبة فى الشبع واطفاء لهيب المعدة ، ويمثل هؤلاء الفلاسفة الماديون ، ومنهم هيوم ، جسندى ، لوك . وفريق يرى أن الانسان يولد مزودا بأفكار فطرية بها يعلم الاشياء المحببة اليه فيدنو منها والأخرى يبتعد عنها ، ويمثل هؤلاء العقليون ويدخل فيهم ديكارت .

(٣) فعل ذلك الاستاذ الدكتور / صلاح عبدالعليم ابراهيم فى كتابه القيم العقيدة فى ضوء القرآن الكريم " ونشرته له مكتبة الأزهر " .

(٤) أنظر كتابه " نحو عقيدة قرآنية " دار الطباعة المحمدية بالقاهرة ط١ ١٩٦٩م .

١ ــ تآخي الاســلام والعقــل .
٢ ــ لا تنافر بين العقــل والديـن .
٣ ــ التوفيق بين الفلسفة والديـن .

ثم راح يثبت ذات الباري جل وعلا من خلال منظور قرآني هو قوله تعالـــى : " قالت رسلهم أفي الله شك : فاطر السماوات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى " (١) ولما كانت الآية القرآنية تحمل معها أدلة وجـــود الله ، من أنه فاطر السماوات والأرض ومبدعهما على غير مثال سبق ، وأنه المنشئ لهما من العدم ، وأنه وحده الذي يقدر على ذلك ويستحيل مشاركة غيره له فيـــه كانت الآية في باب الأدلة أقرب ، والى الأحكام أتم . من هنا فان وجود اللـــه ثابت بطريق القرآن الكريم ، وبالتالي تتبعه صفاته من الجلال والكمال ، ونمحـــى الى الأبد قانون المصادفة ،طالما أن خالق الكون موجود له من الجلال والكمـال ما يناسبه ، وقد أحسن المؤلف سلوك الطريق ففاز بما قصـد .

ولعل الحديث القرآني عن اثبات الذات الباري جل وعلا ، فيه من الأحكـام ما يلفت النظر ويأخذ بالعقل ،(مهما كانت قدراته) الى حديث يهديه لخالقـــه العظيم منزاه تعالى يقول : " أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ، أم خلقـوا السماوات والارض بل لا يوقنون " أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين ، أم له البنات ولكم البنون ،أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ، أم عندهم الغيب فهم يكتبون ،أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون ، أم لهم اله غير الله سبحان الله عما يشركون" (٢) .

---

(١) سورة ابراهيم عليه السلام الآية ١٠
(٢) سورة الطـــور الآيات ٣٥ ــ ٤٣

ورغم أن الآيات القرآنية كلها — السابقة الذكر — قد جاءت مفتتحة بأسلوب التحدى والاستفهام الانكارى ، فانها هدت العقل بكافة طاقاته ، الى معرفة الله بطريق بدهى ، فبدأت بالحديث عن ذات المخاطب ، وهل هو الذى خُلق من غير شىء ، أم خلق نفسه " أم خُلقوا من غير شىء أم هم الخالقون " ثم انتقلت الى العالَمَيْن العلوى والسفلى ، وهو طريق اعجاز وتعجيز ، فاذا تقرر أن المرء لايخلق نفسه ، ولا تخلق بدون خالق ، فما بالك بالأجرام الكبرى ، مَنْ الذى خلقها ؟ هل خلقها العاجز الذى لا يجد نفسه وهو ذات المكلف المخلوق ؟ أم خلقها من خلقه هو اللطيف الخبير .

" أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون "

بل ان الآيات شدت الأذهان اليها ، وطالبتهم أن يجيبوا على ما يوجه اليهم من أسئلة ، فلله خزائن رحمة لاتنفذ ، وخزائن أسرار لايعلمها الا هو ، وخزائن أخبار لايطلع عليها الا من أرتضى من رسول ، فهل عندهم سلطان يمكنهم وقد عجزوا عن خلق أنفسهم — من السيطرة على خزائن رب العالمين ، ولو اجتمع معهم كل العالمين ؟ وهم لامحالة جوابهم العجز ، ويبقى جلال القرآن الكريم محروسا بمهابته ، يحمل أسرارا وضعها الله فيه ، تحمل دفاعا متكاملا على وجود الله ، وصدق الرسالة ، وصحة اليوم الآخر ، فهل آن لنا أن نأخذ بمنهج القرآن الكريم ، حين البحث فى علم الكلام ؟ !

الفصل الثالث

(نماذج للمنهج المعاصر فى معالجة القضايا الكلامية)

(المناهج القرآنية التى يمكن تطبيقها فى المعالجة)

حقا جاء القرآن الكريم من رب العالمين ، هداية للخلق أجمعين ، وبالتالى فقد جاءت آياته تتحدث عن اثبات الله ، ووجوده وصفاته وكل ما من شأنه أن يدخل فى علم التوحيد ، وبل انها أزادت عليه وأضافت الأخلاق الفاضلة ، والقيم النبيلة ، والأسس العامة لبناء المجتمع المثالى الفاضل ، الذى يمكن تطبيقه فى عالم الواقع ، وما على الباحث الا أن يجد فى الاستنباط ، وهو بأذن الله سهل ميسور ، وهاك بعض النماذج فى مناهج عامة .

الأول : المنهج التأملى :

وهو منهج يقوم على تأمل العالم الموجود ، استشراقا للعالم الأعلى واهتداء بآيات القرآن الكريم ، وهذا المنهج نبه اليه كثير من الباحثين ، فى كل فروع المعرفة الانسانية ، فعالم الطب قد استدل من قوله تعالى " وفى أنفسكم أفلا تبصرون " (١) على ضعف الانسان وعجزه عن مقاومة أضعف أعدائه ، ثم دقة تكوينه وارتباط كل عضو فى بدنه ، بكل الأعضاء الأخرى ، بحيث يمثل جسم الانسان الواحد ، كتلة هائلة من الأنواع والألوان يتألم بعضها اذا أصيب أى عضو فيه ، ولعل هذا ما يمثله الحديث الشريف (٢) ابتداء من الدم من حيث تجلطه وسيولته وتكوينات كراته ، وتحطيم بعضها أو تعويضه الى الخلايا الثنائية والتى تنقسم تلقائيا ، حتى يكتمل نحو الانسان ، ويظل ذلك الانقسام ليجدد خلايا الانسان كلها فى كل فترة مرة ، الى الخلية الواحدة ، وعدم انقسامها لأنها فى حد

---

(١) سورة الذاريات الآية ٢١
قال صاحب " مختصر تفسير الطبرى " وفى أنفسكم بمعنى وفى خلق أنفسكم ، وجوارحكم دلالات على وحدانية صانعكم " مصحف الشروق المفسر الميسر دار الشروق .

(٢) قال عليه السلام " مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر " .

ذاتها لاتقبل الانقسام ، ولو انقسمت لوقع خلل كبير فى جسم الانسان الطبيعى كالخلية العصبية ،والتناسلية ، والقلب والمخ ، وهذا فى حد ذاته ميدان فسيح جمع الى رحابه أغلب الباحثين فى العلوم الطبية ، فآمنوا بوجود الله واستمراره مع وحدانيته وسائر صفاته الكمالية ، وجراحوا المخ والأعصاب يسمون أبحاثهم أبحاث معرفة الله تعالى .

وهذا المنهج التأملى ، جاء فى القرآن الكريم كثيرا ، من ذلك قوله تعالى : " فلينظر الانسان مما خلق ، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب(١) ولا يختلف عاقل فى أن الانسان المحتاج الى والدين (٢) قد جاء من ماء دافق ، فى صدره ، حيث يأتى الماء الدافق من الرجل حاملا اللقاح معه ، والماء الدافق هو " السائل المنوى " واللقاح هى الخلية الذكرية ، وذلك كله يشتمل على :

أ ـ السائل المنوى :SEMINL.FLU. وهو قادم من الخصية ، ثم تباركه البروستتاتا وتؤمنه ، حتى يبلغ مأمنه .

ب ـ الحيوانات المنوية: SPERMS. وهى مادة آتية مع السائل المنوى تحمل فى طياتها عددا هائلا من تلك الحيوانات التى ما ان تفرغ فى ساحة البويضة حتى تحاول احداها الظفر بها .

جـ ـ البويضة : OVUM وهى آتية من مبيض الانثى THE OVERY حيث تنطلق من المبيض بسرعة هائلة ، دافق ـ الى قناة فالوب ، حتى يتم الوفاق بينها وبين حبيبها المرتقب الذى ينتظرها على أحر من الجمر وهو الاسبيرم ، فيتم باذن الله تعالى الحمل .

ثم نأتى الى وصف القرآن الكريم لمراحل خلق الانسان فى هذه الآية ، فنجده

---

(١) سورة الطارق الآيات ٥ـ٧

(٢) حددت الانسان المحتاج الى والدين ليكون باب المعجزة واضحا فى غيره لأنه من الأمر الاعجازى الذى مصدره كن فيكون ، وهو ليس فى حاجة الى الوالدين أو غيرهم انما تقف الاسباب بعيدا عنه ليأتى دور المعجزة وليكون كاملا

يتحدث عن مخازن الماء الدافق فى الأب والأم ، بأنه فى الرجل مخزون فى صلبه ونعنى به العمود الفقرى فيه ، وبأنه فى الانثى متمركز فى ترائبها ، ونعنى بـه أعلى شيء فيها تحت ترقوتها ، أفلا يكون ذلك التصوير المبدع كفيلا لانشاء علم الكلام فى الاسلام على نحو علمى يوافق العصر الذى ينشيء فيه ، ويؤدى دوره فيه على الوجه الأكمل ؟

وقد أيقن كثير من المهتمين بالدراسات الطبية ، بل وأغلب المتخصصين فيها هذا الوحى الدائم ، فهبوا يكتبون تجاربهم ، ويرصدون تحركات الجسم الانسانى وهو ينعم بأثير الحياة ، ثم يواجهونه بقدره المحتوم حين يودع الدنيا فيجدونه لاحول له فى الحالتين ولا طول ، وانما مرد ذلك كله الى اللطيف الخبير ، فآمنوا وأزعنوا وراحت أبحاثهم تزداد حتى صارت مراجع أصيلة ، يعتمد عليها عند الحديث فى حكمة الله فى الانسان ، وبط يعتبر قواعد دقيقة لاثبات علم الكلام فى الاسلام ، من خلال العصر الحديث وبأسلوبه ومنهجه .

ثم ان المنهج التأملى ، ليس قاصرا على العلوم الطبية فقط ، بل انه ميدان حب يستوعب العلوم التجريبية والتجريدية على درجة سواء ، وذلك ان أخذ من القرآن الكريم ، والسنة المطهرة الصحيحة أدى الى المطلوب من أقصر طريق فاذا تأملنا قوله تعالى " والله خلقكم ثم يتوفاكم ، ومنكم من يرد الى أرذل العمر ، لكى لايعلم بعد علم شيئا ، أن الله عليم قدير " (١) وجدنا ذلك التأمل يقودنا الى :

١ — التعريف بالخالق العليم ، جل وعلا ، الله رب العالمين .

٢ — تلخيص دقيق أمين لبداية الانسان ونهايته " خلقكم ثم يتوفاكم " .

٣ — تصنيف دقيق لأعمار الخلائق ، وارتباطها بقدرة الله عليها ، كأرتباط الرزق .

---

(١) سورة النحل الآيـة ٧٠

٤ — السلطان الضعيف لعقل الانسان ، حين يستوعب علوما ، أو يبتكرها ثم يستولى عليه الهرم ، ويفلت منه قيد التحفظ ، أو يسلب عنه صمام الكتمان ،وتصبح جميع قواه فى رحلة التعويض " ومنكم من يرد ألى أرذل العمر ، لكى لايعلم ، بعد علم شيئا " .

٥ — الاحاطة الشاملة ، والعلم الكامل ، بما يجب أن يتمتع به ذو الجلال والاكرام ، من جميل الصفات وكرمها ، بحيث يستحيل أن يشاركه فيهما غيره ، وبنفس القدر الذى حوله .

من هنا فان منهج التأمل ، اذا تتبعناه أوصلنا الى نتائج طيبة فى ارساء قواعد أصيلة لعلم الكلام فى العصر الحديث ، الذى نأمل أن يسود ، وأن نصل به الى كل مكان فى العالم ، مبلغين من خلال منهجه ، دعوة الله الى كل المكلفين مواجهين واقعهم بالأمثل ، وعلمهم بالأكمل .

ولا يشك عاقل فى أن المنهج التأملى ، قد جاء ذكره فى القرآن الكريم كثيرا من مثل قوله تعالى " قل انظروا ماذا فى السماوات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون " (١) .

وقوله تعالى " قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ، ثم الله ينشىء النشأة الآخرة ، ان الله على كل شىء قدير " ، يعذب من يشاء ، ويرحم من يشاء واليه تقلبون ، وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء ، وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير " (٢) ومما تجدر الاشارة اليه ، هو أن المنهج التأملى قد حاز فضل السبق ، وعليه سار كثير من الواصلين ، بجانب أنه طريق الانبياء (قبل النبوة) والمرسلين ، وهو أثير المحبة الذى يستنشقه الحكماء والعقلاء وكبار المفكرين ، فهل يستخدمه علم الكلام فى الاسلام ؟ !!

---

(١) سورة يونس عليه السلام الآية ١٠١
(٢) سورة العنكبوت الآيات ٢٠ — ٢٢

الثاني : المنهج التكاملي :

ونعني به تكامل وجوه المخلوقات ، لتؤدي جميعا دورها في الحياة بصورة مثلى ، وعلى وجه يؤدي الى بيان المزيد من العناية والاحكام ، في صنعة المولى الكريم العلام ، ودونك المثال .

قال تعالى : " انا كل شيء خلقناه بقدر " (١) وفي الآية سور كلي ، على تعبير المنطق ، ولفظ يفيد العموم على تعبير أهل العربية ، ثم اتيان شيء منكرا ، دليل على عموم الخلق لكل شيء فيه ، وكل جزء من اجزائه ، ثم ان الشيء يطلق على الموجود والمعدوم من المخلوقات ، كل على قدر سواء ، وكأن المعنى والله أعلم .

ان كل موجود أو معدوم ، وكل مقدر الوجود ، وكل ما هو مقدر العدم ثابت في علم الله الآزلي ، ثبوت احاطة وشمول ، وخاضع لقدرة الله تعالى ، متى حان وقت تنفيذه (وجودا أو عدما) بحيث اذا وجد كان على أتم وجه ، وأوفى غرض ، واذا انعدم كان لأفضل وجه ، وأنقى منفعة ، وهذا معنى القدر الذي نراه في الآية الكريمة .

وبالتالي فوجود اليابس في عالم الأرض أقل مساحة من المياه ، وجود مقدر عائد لحكمة عليا ، حتى اذا جاءت النظريات العلمية ، لتؤكد أن الماء يشغل ٧١٪ من حجم العالم الأرضي ، وأن اليابس يشكل نسبة ٢٩ ٪ فيه ، لم تكن نتائج النظريات على الدين مبهمة ، أو على نصوص القرآن الكريم مهيمنة ، بل العكس النتائج لدى الاسلام معلومة ، والقرآن الكريم نبه اليها ، من ذلك قوله تعالى :

" أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شيء حي ، أفلا يؤمنون " (٢) .

---

(١) سورة القمر الآية ٤٩

(٢) سورة الأنبياء الآية ٣٠.

ومعلوم أن ما ينشأ منه الحياة هو الماء ، وبالتالي فهو الأكبر عن اليابس والأقدم وجودا ، لقوله تعالى : " وهو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء " (١) اذن الماء أصل كريم لمخلوقات عظيمة . (٢)

كما أنه من المعلوم ، أن الماء له تخلل وتكاثف ، وأن زفراته التى تمثل الأثير والبخار ، تعمل على تلطيف الجو وتهيئة المكان للاستقرار ، بصرف النظر عن عذوبة الماء أو ملوحته ، اذًا وجود الماء بنسبة أكبر لا يعنى ابتلاعه لليابس ، واغراق اليابس فيه ، انما تلمح تكاملا فى صنعة الخالق العظيم ، وهذا بدوره يؤدى الى مزيد الايمان بالله رب العالمين .

وهاك مثالا آخر :

قال تعالى : " كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون " (٣) ، فقد جاء لفظ الشر يعقبه لفظ الخير ، وكأنهما الليل والنهار والشمس والقمر ، فحيث يوجد الخير ينعدم الشر ، وحيث يستقر الشر لا ينجلى الليل ، ووجود الشر مع الخير ، نوع من التكامل ، يدفع المؤمن ليزداد ايمانا ، والملحد لعله يعود الى رشده ، ويدرك أن الخير والشر هما بالنسبة للمخلوقات فقط ، من حيث تصورهما والدلالة ، أما من حيث الفعل ، فان فعل الله خير كله ، على ما يراه العلماء والمحققون .

اذن وجود الخير والشر فى الكون ، أمر ضرورى للكون وساكنيه من المكلفين وغيرهم ، حتى انهما ليتكاملان بحيث يستحيل على العقل السليم تصور أحدهما دون الآخر ، كما يستحيل لديه أن يتصور العالم وقد خلى من أحدهما وقد أفاضت

---

(١) سورة هـود الآية ٧

(٢) قام الصديق العزيز الاستاذ / محمد فواز بدراسة علمية لنيل درجة الماجستير من كلية أصول الدين القاهرة ، فى موضوع " الماء وسر دلالته فى الدعوة الى الله " وقد نال بها الدرجة ، وقدم بحثا طيبا نتمنى له النشر ليستفيد به المتطلعون اليه . (٣) سورة الانبياء الآية ٣٥

آيات الذكر الحكيم فى هذا المعنى ، كما قد أفاض فيه كثير من الباحثين من المسلمين وغيرهم ، تحت اسم الحرية مرة ، وتحت الاتساق المقدر أخرى ، أو تحت الصدق والضمان الالهى . (١)

فاذا استغل علماء الكلام ذلك المنهج التكاملى ، فانهم حتما سيوجهون دراساتهم فى علم الكلام ، وجهة قد يسبقهم فيها غيرهم ، ان هم ناموا عنها فالانسان نفسه ، فيه البصر يتكامل مع العقل ، فيزوده بالمعرفة البصرية ، والأنف يزوده بالمعرفة الشمية ، واللسان بالمعرفة الذوقية ، والسمع بالمعرفة السمعية . بحيث اذا فقد المرء واحدا من تلك ، فان جهاز استقبالها فى العقل أيضا يتعطل ، فانك اذا قلت لفاقد البصر ، صف لى الألوان ، واذكر أجملها ، فانه لن يجيبك اجابة مَنْ أدركها بنفسه ، ووصلت الى فؤاده ببصره ، وانما سيعمد الى الى الاجابة عليها ، بنوع ما وصفه له غيره ، ووصل الى عقله من خلال سمعه لا ببصره وكذلك كل حاسة من الحواس ، التى تمد العقل بالمعرفة ، أو تزيده على الهامه الهاما . واقرأ ان شئت قول الله تعالى :

" ولا تقف ما ليس لك به علم ، ان السمع والبصر والفؤاد ، كل أولئك كان عنه مسؤلا ، ولا تمشى فى الأرض مرحا انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ، كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها ، ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله الها آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا " (٢) وسوف نجد ملامح المنهج التكاملى بارزة عيانا ، تأخذ بعقلك الى حيث تهديك للطيف الخبير .

وفى تقديرى أن المنهج التكاملى فى وجود المخلوقات هو أقرب طريق الى معرفة الله تعالى ، كما يوضح الدور الذى يجب على المسلم اتباعه حتى يكون على

(١) راجع بعد القرآن الكريم ، كلا من : المؤلفات فى علم الكلام ، خاصة موضوعات القضاء والقدر ، وآراء الفرق الكلامية فى أفعال العباد ، وفكرة الانسان المقدر لدى الامام الجوينى وابن عطاء الله فى استدلاله على وجود الله والتأملات لديكارت ، النسخة المترجمة الى العربية ، وكانت للدكتور زكريا ابراهيم .

(٢) سورة الاسراء الآيات ٣٦ — ٣٩ .

استعداد لحمل قضية دينه ، ليفاخر بها فى ثقة ويقين ، ويناضل من خلاله فى ثبات واقتدار ، شريطة أن يكون واعيا لقوله تعالى :

" هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ، بل الظالمون فى ضلال مبين " (١)

وقوله تعالى :

" قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السماوات أئتونى بكتاب من قبل هذا أو اثارة من علم ان كنتم صادقين " (٢) .

ولن يفلح علم الكلام الاسلامى فى العصر الحديث ، الا اذا استخدم المناهج القرآنية ،وعمل على اخضاع العلم لها بكل ما يملكه هذا العلم المادى أو يدعيه ليعرف الجميع كيف كرم الاسلام العقل ، واحترم الانسان ، وعرفه بحقيقة الدين الحق ، دين الاسلام .

---

(١) سورة لقمان الآية ١١

(٢) سورة الأحقاف الآية ٤

ثالثا : المنهج الطبيعــــى :

وهو منهج يقوم على أساس النظر فى الطبيعة وحدها ، لا على أساس أنها الخالقة كما يدعى البعض ، بل على أساس أنها محل النظر الكونى ، الذى يطيل العقل النظر فيه ويجيله ، وأمثل دليل على هذا المنهج هو قوله تعالى :

" ألم نجعل الأرض مهادا ، والجبال أوتادا ، وخلقناكم أزواجا ، وجعلنا نومكم سباتا وجعلنا الليل لباسا ، وجعلنا النهار معاشا ، وبنينا فوقكم سبعا شـداد وجعلنا سراجا وهاجا ، وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ، لنخرج به حبا ونباتـا وجنات ألفافا " (١) .

وقوله تعالى :

" قتل الانسان ما أكفره ، من أى شىء خلقه ، من نطفة خلقه فقدره ، ثم السبيـل يسره ، ثم أماته فأقبره ، ثم اذا شاء أنشره ، كلا لما يقض ما أمره ، فلينظر الانسان الى طعامه ، أنا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا ، وزيتونا ونخلا ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا ، متاعا لكم ولأنعامكم . (٢) .

وقوله تعالى :

" أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت ، والى الجبـــال كيف نصبت ، والى الأرض كيف سطحت ، فذكر انما أنت مذكر ، لست عليهم بمصيطر (٣)

وقوله تعالى :

" أو لم ينظروا فى ملكوت السماوات والأرض ، وما خلق الله من شىء ، وأن عســى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون " . (٤)

---

(١) سورة النبأ الآيات ٦ ــ ١٦

(٢) سورة عبـــس الآيات ١٧ ــ ٣٢

(٣) سورة الغاشـــية الآيات ١٧ ــ ٢٢

(٤) سورة الأعـــراف الاية ١٨٥ .

وهذا المنهج هو الذى يدعم قضية النظر فى العالم الطبيعى ، لا من حيث ذاته كأبحاث الفيزيقيا ، بل من حيث دلالته على الفاعل المختار ، جل وعلا ، والذى هو غاية علم الكلام ، " وحقيقة قد أثبت العلم الحديث ، أن هذا الخلق المحكم الذى يتجه نحو غاية محددة ، لايصدر الا عن خالق مدبر حكيم ، فان وجود الليل والنهار والشمس والقمر ، والحيوان والنبات والأمطار ، كل ذلك يوافق حياة الانسان . (١)

وذلك المنهج الطبيعى ، قد تكرر ذكره فى القرآن الكريم كثيرا ، حتى لفت أنظار الفلاسفة والحكماء قديما ، ونبه العلماء حديثا ، حتى اعتبره ابن رشد مما يحمل فى أحشائه دليلين .

الاول : دليل العناية : البادية فى الموجودات جميعها ، والتى شملتها من ناحية خلقها ، وتعلقها بغيرها ، وأنها جميعا فى طاعة دائمة لله ، وتسخير مستمر للانسان ، استدلالا بقوله تعالى :

" هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ، ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سماوات ، وهو بكل شئ عليم " (٢) .

والثانى : دليل الاختراع : الذى استقر فى أفهام العقلاء ، من المكلفين من أن كل صنعة لها صانع ، وكل اختراع له مخترع حتما ، ويشهد لذلك قوله تعالى :

" كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون " (٣)

ومن آياته "أنك ترى الأرض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ان الذى ، أحياها لمحى الموتى انه على كل شئ قدير " (٤) ولا شك أن المنهج القائم على العلوم الطبيعية من ناحية تأملها ، والبحث فى كل أرجائها وصولا الى تأسيس منهج شامل لعلم الكلام الاسلامى فى العصر الحديث ، أمر محبب الى نفوس أصحاب هذا الدين الحنيف الذى نقف جميعا تحته ملوحين للعالم كله ، مفاخرين بأننا أتباعه ، ألا وهو دين الاسلام .

---

(١) د / سليمان سليمان خميس . نحو عقيدة قرآنية جـ ٤ ط ١ دار الطباعة المحمدية
(٢) سورة البقرة الآية ٢٩ (٣) سورة البقرة ٢٨ (٤) سورة فصلت الاية ٣٩ .

رابعا : المنهج الروحي :

ونعني به سيطرة الوحي الروحي ، على الجسم المادي ، الذي يحتقل داخله عقل فينان وروح وثابة ، ما ان تبلغ رشدها فتحاول التحليق في مجالها حتى يخلها البدن الثقيل ويعوقها عن الطيران الخفيف ، فاذا نام البدن ، وهجعت الحواس ، انطلقت الروح في عالم الغيب ، تسبح هنا ، وتمرح هناك ، مستغلة ضعف القوى الارادية في الانسان البدني ، وعجزها عن ملاحقة الانسان الروحي النفسي ، الذي يحل بسلطانه فيحلم ويفكر ، ويحيى سعيدا في عالم الخيال ، بعيدا عن عالم المادة الكثيف .

وتلك الروح لايحجبها أحد ، ولايوقفها عن التحليق سلطان جائر ، كما لا يقيدها حصول على تصريح مرور ، من هنا فان انطلاقها الواسع ، يمكنها من الاتصال بعوالم الغيب ، كما تتصل بعالم الشهادة ، رغم انها ليست مادة محسوسة ، وكذلك مدركاتها ، فالأحلام والرؤى وما يصدر عن ذلك كله ، لامرد له الا الفكر والعقل والعلم ، ومن وراء ذلك روح شفافة ، لاتمل ولا يبلغ منها الجهد مبلغا ، وهي مجرد صورة لسلطان القوى الأعظم ، وهي التي أوحت الى ديكارت فكرة المدفأة وخيال النائم ، حتى أملت عليه قضية الضمان الالهي ، وكذلك جعلته يسترجع سريعا فكرة الصدق الالهي ، حتى فاق من حلمه ، وعاد اليه وجدانه السليب .

وان نطالع نصوص القرآن الكريم في هذا الصدد تجدها كثيرة أثناء الحديث عن الملائكة والشهداء وأرواح الخلائق في حالات :

أ — الحياة .

ب — الموت .

---

(١) راجع التأملات لديكارت من الثاني الى الرابع الترجمة العربية ، وانظر كذلك التأمل الاخير منها ومحاولة ليبنتز في المونادولوجيا ترجمة د / عبدالغفار مكاوي .

جـ ـ اليقظـــــة .

د ـ النـــــوم .

ثم الحياة الأخرى التى تبدأ من لحظة مغادرة الدار الدنيا حيث يقـــــر الجسد فى مثواه ، وتعلو الروح الكريمة للنعيم ، وتقع الشريرة فى الجحيم ، وقد جاء لفظ الروح فى القرآن الكريم على أنواع ثمانية .

منها جبريل عليه السلام ، فى قوله تعالى :

" تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل أمر ، سلام هى حتى مطلع الفجر" (١)

وقوله تعالى :

" فارسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا قالت انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا ، قال انما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا " (٢)

ومنها الروح التى يعيش فيها الانسان ، وعنها كان سؤال القوم للرســـــول صلى الله عليه وسلم ، " ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم الا قليلا " (٣) .

فهذا المنهج الروحى الذى سلكه القرآن الكريم ، من وجود الروح الانسانية المغايرة للروح الحيوانى التى تبقى بعد الموت ، ووجود الأرواح الأخرى التـــى سخرها الله ، كل ذلك يلائم بعضا من الناس فى الاهتداء الى عقيـدة الألوهيـة والى وجود اله قادر حكيم ، أعطى كل شئ خلقه ثم هـــدى . (٤)

---

(١) ســـورة القدر الآيتان ٤ ، ٥

(٢) ســـورة مريـــم الآيات ١٧ ، ١٨ ، ١٩ .

(٣) ســـورة الاســـراء الاية ٨٥

(٤) الدكتور / سليمان سليمان خميس " نحو عقيدة قرآنية ص ٤٣ ، وقد أستفدنا منه المنهج الثالث والرابع والخامس والسادس فجزاه الله عنا خير الجزاء .

ولا شك أن البحث فى وجود موجود أعلى ، ليس محسوسا ولا يناله الحس ، من خلال وجود الروح الأعم ، وتخصيص بعضه بالحيوانى ، والآخر بالانسانى . وقدرة تلك الروح العظمى على اقتباس المعلومات ، والحفاظ على الموجودات دليل قوى على وجود الله تعالى .

واستخدام ذلك المنهج الروحى فى علم الكلام ، سوف يفتح بابا واسعا خاصة وأنه فى العصر الحديث ، يموج عالم الأرواح بالأدعياء والخلص ، وكل يريد السبق ، بل والبقاء وحده فى الميدان .

وعندى أن علم الكلام فى الاسلام ، اذا وافق القائمون عليه فى البحث بالمنهج الروحى فانه سوف يؤكدون استقلالهم ، وجدة أبحاثهم ، وصدق نياتهم ، وأنهم أجدر بهذا الشرف وأحق . وقد نشطت جماعات تحت مسميات روحية فى هذا السبيل بقصد تدعيم ديانات أتى عليها الزمن . (٥)

---

(٥) راجع مطول الانسان روح لا جسد ، د / رؤوف عبيد الجزء الأول والثانى والجمعيات الروحية ، التى يتتشر اتباعها ، فى العالم العربى والغربى على حد سواء ، وتعمل المسيحية على تدعيم تلك الجمعيات بشتى الطرق .

خامسا : المنهج النفسي :

ونعني القدرة العليا ، التي تكبح جماح النفس ، ولاتمنحها كل رغائبها ، بل ترج بها (أحيانا) في غير ماتريد ، ذلك لأن لكل نفس رغائب ، تعمل على تحقيقها ، ولو كانت معارضة لرغبات الآخرين ، من ذلك يحدث نوع من التناقض والصراع بين رغبات كل نفس والأخرى ، ولا يمكن تسويته لصالح واحدة على حساب الأخرى ، بل لابد من الموائمة بين رغبات هذه ، ومطالب تلك بحيث يتحقق مافيه الصالح العام للجميع ، وذلك ما يتحقق به للمجتمع الانساني الأمن ، ويخلد به للأمان .

من ثم كان شعور العقلاء جميعا ، بأن هناك قوة عليا ، تدبر هذا السريان وتعمل على تنمية خطوات الأتفاق فيه ، وإذا به شواغل الاختلاف ، هو شعور نفسي عام يجمع الناس جميعا تحته ، بحيث لا يشذ عن ذلك واحد من العقلاء ، وليس هذا فحسب ، بل ان لكل نفس عددا من القوى تتصارع فيما بينها ، من قوة غضبية الى شهوية ، الى قوة عاقلة ، ومن قوة خيرة الى أخرى شريرة ، وتلك القوى جميعا يبدو بينها الخلاف نشيطا ، ويظهر واضحا ، لدرجة تؤكد أن السيطرة على المتصارعين لاتأتي من داخل القوى المتصارعة ذاتها ، وانما من خارجها ، حيث عناية الله التي تعين كل نفس على ما قدر لها ، وما هي به عليمة وعلى دربه سائرة لتثاب به أو تعاقب عليه .

ولعل قوله تعالى : " يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة "(1) دليل على وجود النفس العامة الكاملة ، وعلامة على امكانية اهتداء الخلائق الى الله تعالى ، عن طريق النفس الانسانية من حيث ذاتها ، ونسبة المتناقضات

---

(1) سورة النساء الآية ١

اليها ، وانتصار العوامل الهادفة على غيرها ، وعجز الانسان ، وقصور اراداتـه عن بلوغ أهدافها ، وظهور ضعفها أمام سلطة الاله الأعلى رب العالمين .

ثم ان النفس أنواع ثلاثة ، بحسب ما يصدر عنها ، لا بحسب تقسيم الفلاسفة لهـا :—

١ — النفس الأمارة بالسوء :

وهى التى تدفع صاحبها الى الشك ، وتلقى به فى رحاب الضلال ، حتى يراه حسنا رغم قبحه ، وعظيما رغم حقارته ، وتزين له كل ألوان الضلال قيما عليا ، وجاء ذكرها فى القرآن الكريم ، من ذلك قوله تعالى :

" وما أبرىء نفسى ان النفس لأمارة بالسوء الا مارحم ربى ، ان ربى غفور رحيم " (١)

ولا عاصم لصاحبها الا أن تدركه رحمة الله تعالى ، فتعينه على طرق سبل الهداية وتنقله الى شاطىء الأمان .

٢ — النفـس اللوامـــة :

وهى جبلت على محاسبة ذاتها ، فاذا ما وقعت فى منهى عنه ، عادت الى باب التوبة تطرقه ، وتسيل على أعتابه دموع الندم أنهارا ، وكلما حاول الشيطان دفعها الى بحار الهلاك ، تتعلق بشواطىء الهدى ، وتظل على تلك الحالـة طويلا ، فاما أن تدركها رحمة الله فترقى الى درجة عليا ، واما أن ينحط بهـا فعلها ، فتتقهقر الى الدرجات السفلى ، ولعل هذا ما أشار اليه القرآن الكريم فى قوله تعالى : " لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة " (٢) وحسبها أنها تفطن الى الخير وتحاول الولوج اليه .

---

(١) سورة يوسف الآية ٥٣

(٢) سورة القيامة الآيات ١ ، ٢

٣ ـ النفس المطمئنـــة :

وهى نفس ذكت بطاعة الله ، واستقر فى أعماقها نور الاسلام ، فأضاء ما بين جوانحها ، من دروب معقدة وعرة ، حتى عرف السائر فيها وضوح مراده ، وسلامة مسلكه فى طريق الوصول الى الله رب العالمين ، وتلك التى أطمأنت هى لا محالة نفس سامية ، عرفت فى الدنيا صواب طريقها ، وعلمت فى الآخرة محط درجاتهـــا فاطمأنت فى الدنيا ، ولم تخشى سلطانها ، وهجعت للآخرة وفرحت بلقائهـــا فقوبلت بالبشرى ، ولعل هذا ما أشارت اليه الآيات القرآنية فى قوله تعالى :

" يا أيها النفس المطمئنة ، ارجعى الى ربك راضية مرضية ، فأدخلى فى عبادى وأدخلى جنتى " (١) ومما لاشك فيه ، أن تلك النفوس جميعها ، تحكمها قـــوة عليا وارادة سامية ، تدعوا العقلاء جميعا للتفكير الجاد فى وجود الله ، واثبات صدق الرسل ، وصحة اليوم الآخر .

ثم ان تلك النفس الصغيرة ، ليست ذات ثبات معين ، فهى تحب وتكـــره ، وتفرح وتغضب ، وهى تنفر وتألف ، الى غير ذلك من صفات التردد وعدم استقرا ر الحال ، ويحصل ذلك كله دون وجود سبب له ، فكم من محب وله ، انقلب الـــى كاره مذم ، وكم من ألف مألوف ، انقلب الى نافر منفور منه ، أفلا يدل ذلك التحول على ضعف النفس البشرية ، وعجزها عن ايجاد نفسها ، أو اصلاح كل شأنهـــا ، وبالتالى يؤكد حاجتها الى قوة عليا ، تتحكم فيها وترشد منالها وتهديها الى مـا فيه مصلحتها ، ولا يكون ذلك الا بالعليم الخبير ، الذى قلبت وجوده ، وتعالـت ارادته ! .

---

(١) سورة الفجر الآيات ٢٧ ـ ٣٠ .

ولعل هذا ما أشار اليه الحديث الشريف ، فى دعائه صلى الله عليه وسلم ، " اللهم مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك " (١) ، وقوله صلى الله عليه وسلم : " اللهم هذا فعلى فيما أملك " (٢) ، وقوله صلى الله عليه وسلم : " اللهم مصرف القلوب ، اصرف قلوبنا الى طاعتك " (٣) ، وقوله صلى الله عليه وسلم : " ان قلوب بنى آدم كلها بين اصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء " (٤) ، الى غير ذلك من الأحاديث التى تحدثت عن النفس ورغباتها ، وعجزها من السيطرة على كل مناجيها ، والدلالة القوية على وقوعها فى صراع دائم ، واحتياجها المستمر لقوة عليا ، وإرادة سامية هى وجود الله تعالى .

ولعل قوله تعالى : " واعتصموا بحبل الله جميعا ولاتفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء ، فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته أخوانا " (٥) .

وقوله تعالى : " وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله ، هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ، ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم انه عزيز حكيم " (٦) ، هو أبلغ دليل على ما ذهبنا اليه من امكانية سيطرة المنهج النفسى القرآنى ، لاثبات وجود الله وسائر صفاته وصدق الرسالة ووقوع اليوم الآخر ، فهل لنا أن نأخذ به ؟ !

---

(١) مسند الامام احمد ٦ / ٢٠٢ عن أم سلمة مرفوعا .
(٢) المسند ٦ / ١٤٤ عن عائشة رضى الله عنها مرفوعا وتكملته فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك .
(٣) المسند ٢ / ١٦٨ عن عبدالله بن عمرو مرفوعا .
(٤) المسند ٢ / ١٦٨ عن عبدالله بن عمرو مرفوعا .
(٥) سورة آل عمران الآية ١٠٣ .
(٦) سورة الأنفال الآيتان ٦٢ ، ٦٣ .

ورغم أنها نفس الا أنها ذات أثر بعيد في ذاتها من حيثيات عدة فهي :

١ ـ مركبـة من قـوى عديدة .

٢ ـ توصف بالحياة والمـوت .

يشهد لذلك قوله تعالى : " الله يتوفى الأنفس حين موتها ، والتي لم تمت في منامها ، فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى الى أجـل مسمى ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون " (١) .

وقوله تعالى : " كل نفس ذائقة الموت وانما توفون أجوركم يوم القيامة ، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور " (٢)

وقوله تعالى : " كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينـــا ترجعون " (٣) .

وقوله صلى الله عليه وسلم : " ان روح القدس نفث في روعي ، أنه لم تمـــوت نفس حتى تستوفي أجلها وتستكمل رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب " (٤) الى غير ذلك من الآيات والأحاديث .

٣ ـ متعددة بأفرادها . مفكرة في ذاتها ، فهي أمارة ، لوامة ، مطمئنـــة ، خيرة ، شريرة ، تقية أو فاجرة .

٤ ـ تطلق على المكلفين عند التخصيص . ولذا فهي العالمة أو الجاهلة والمثابة أو المعاقبة ، وهي المخاطبة عند الأوامر الشرعية ، ثم انها على التأكيد محل تجميع أدوات الفعل خيرها وشرها .

٥ ـ ذات دلالات بعيدة المدى ، بحيث يصعب على مفكرنا أن يحصرها ســـواء في ذاتها أو الدلالة .

---

(١) سورة الزمر الآية ٤٢

(٢) سورة آل عمران الاية ١٨٥

(٣) سورة الأنبياء الاية ٣٥

(٤) كشف الخفاء ١ / ٧٠٧ وجامع الأحاديث ٢ /٤١٧ / ٧٦٧

٦ — أنها صورة مثلى لعالم مخلوق ، يدل كله على وجوب اعترافه بوجود فاعله — ألا وهو الله ، وصدق رسوله ، وصحة وقوع اليوم الآخر ، فهل آن لنا أن نجعل من أهداف علم الكلام فى الاسلام النظر الجاد فى مناهج العصر الحديث ، لبيان وجوب وجود فاعله .

---

(١) فى سورة الزمر الاية ٤٢ ذكر فى معنى الآية أن أرواح الأحياء والأموات تلقى فى المنام فيتعارف ما شاء الله منها ، فاذا أراد جميعها الرجوع الى أجسادها ، أمسك الله أرواح الأموات عنده وحبسها وأرسل الأرواح الأحياء حتى ترجع الى أجسادها ، الى أجل مسمى ، الى انقضاء مدة حياتها

* مختصر تفسير الطبرى مع المصحف المفسر دار الشروق هامش ص ٥٢٥ .

سادسا : المنهج الأخلاقى :

حقا سلك القرآن الكريم بالمنهج الأخلاقى لاثبات وجود الله ، وتقرير العقيدة الايمانية والدفاع عنها ، مسلكا امتاز بالطهر والنقاء والاكتفاء ، وجعل مقياس ذلك المنهج ، هو ما يصدر عن الانسان من حيث سلوكه الخاص النابع من ارادته الحرة فامتدح صاحب الخلق الطيب ، وذم صاحب الخلق الذميم .

اذا فما هو المنهج الأخلاقى لتقرير العقيدة الايمانيـة ؟

الجـــــواب :

أن المنهج الأخلاقى ، طريق يقاس به فعل المرء ذاته ، وما يصدر عنه بارادته ومدى التزامه به أو خروجه عليه محكوما بشرع سماوى ، لأن بعض الناس تحكمه المنفعة وتسيطر عليه الأثرة ، ويتملكه حب الذات ، ويعيش فى مناحى فؤاده ، أخطبوط الفزع والرعب ، فلا يصدر عنه فعل ، الا وهو منطبع بتلك الصفات ، من كذب ونفاق ورياء وقتل وسلب ونهب ، دون مراقبة لضمير ، ولا خوف من سلطان عظيم ، ومنهج هؤلاء يوسم بالخلق السئ ، ومثلهم لاتنفع فيهم الموعظة ، ولاتجدى معهم عوامل الشفقة ان هم الا "كالحجارة بل أشد قسوة ، "كأنهم خشب مسندة" (١) .

وبعضا آخر يقضى عمره مفتاحا للخير مغلاقا للشر ، يحدوه الأمل فى الايثـار وينشد من داخله الأمن ويحن للأمان ، يفزع فى مصالح الناس ، ويقضى عمره فـــى قضاء حوائجهم ، "أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجوا رحمة ربه" (٢) متمثلا يوم العرض على الملك الديان ، لاتسمع منه لغوا ان تحدث ، ولا نفاقا أو تغريرا ان نصح ، ولا منا ولا أذى ان تصدق ، "سيماهم فى وجوههم من أثر السجود" (٣) ، تقضى مصالح الخلق على أيديهم ، ويصدق فيهم قوله صـــلى

---

(١) سورة المنافقون الآية ٤
(٢) سورة الزمر الآية ٩
(٣) سورة الفتح الآيـة ٢٩

الله عليه وسلم ، " فرسان بالنهار ، رهبان بالليل " عملا وعبادة ، فكـــرا وسـلوكا ، أولئك أصحاب الخلق الكريم الحسن .

علموا أن حسن الخلق ، يرضى المولى الكريم ، ويجعل صاحبه محل انزال رحماته عليه فالتزموا به ، وقد بشر الرسول صلى الله عليه وسلم ، أصحاب الخلـق الحسن بقربهم منه يوم القيامة ، فقال صلى الله عليه وسلم " ان أقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا ، الموطاؤن أكنافا ، الذين يؤلفون ويألفون " (١) ، ولأنهم سموا بأخلاقهم الطيبة جعلهم الله مفاتيح رحمته ، فقال عليه السلام : " من الناس من جعلهم الله مفاتيح للخير مغاليق للشر ، ومن الناس من جعلهـم الله مغاليق للخير مفاتيح للشر ، فطوبى لمن أجرى الله الخير على يديه ، وويل لمن أجرى الله الشر على يديه " (٢)

ولما كانت أفعال الناس بهذا الشكل ، اما حسنة واما ذميمة ، فلابد أن يعتدى المسئ على المحسن ، والضال على المهتدى ، والفاجر على العابد ، لأن الأول بخلقه المسئ يندفع الى مكامن الشر ، والثانى بمواقع الايمان فى قلبـه لايقابل السيئة بمثلها ، بل يعفو ويصفح ، أو يظلم فيدعوا بدعوة المظلوم ، أو يفوض الأمر لعلام الغيوب الحى القيوم .

ونظرا لوقوع مثل هذه المصادمات بين الجانبين ، المحسن والمسئ — وقـد يموت المظلوم دون بلوغ مراده من ظالمه ، أو يستشهد تحت الحاح ضميره للدفاع عن حقوقه .

---

(١) جامع الأحاديث ٢ / ٢٢٨ — ٤٦١ رواه ابن عساكر عن أبى هريرة ، واخرجه الترمذى عن جابر رضى الله عنه .

(٢) جامع الأحاديث ٢ / ٦٨ ٤ أخرجه البيهقى عن أنس رضى الله عنه .

فان المنهج الأخلاقى يوجب عليه الاعتراف بوجود الله تعالى وسائر صفاته ليتحقق العدل بين الناس ، وتسود فيهم الفضيلة ، ولا يمكن أن يتحقق العدل الا اذا فرض من قوة عليا ، أعلى من المخلوقين جميعا ، بحيث تملك من وسائل القهر والترغيب ، ما يجعلها قمينة بالاحترام ، وقديرة على انفاذ الوعد وانجاز الوعيد ، وتلك القوة العليا ، من صفاتها الكمال ، والدوام ، والتنزيه ، وحتى لايحتج عليها ، ولابد أن تكون أحكامها فى مقدور المكلفين ، وذلك كله لا يتأتى الا من خلال رب العالمين الذى ملك الجميع بملكه ، وأعزهم بعزه ، وأكرمهم بكرمه وعرفهم بنفسه ، ولا يقوم على الكلام الا على هذا الطريق ، فى هذا الجانب .

اذن اختلاف الناس فى أخلاقهم ، ودرجات تلك الأخلاق ، وحاجتهم الى تقرير قاعدة ثابتة عدلية لديهم ، يوجب عليهم الاعتراف بالله ، بصرف النظر عن اعتناقهم لذلك الذى أقرره أو عدمه ، انطلاقا من القاعدة الشرعية التى توجب عليهم أن يعتنقوه ، وأن يعبدوه ، ولا يشركوا به شيئا .

ثم ان تقرير ذلك العدل يتطلب تحقيقه ، ويستلزم وقوعه ، وحتى لا يكون الوعد سرفا ولا العدل كبوة ، لابد أن يشعر الجميع بقوة عليا ، هى التى فرضت ذلك العدل وأقرته ، وهى التى أمرت به وشرعته ، وحتى تنال تلك القوة منهم المعرفة الكاملة ، لابد من جانب أكيد مضمون ، ألا وهو جانب النقل ، الذى يعرفهم بالخالق العظيم ، وسائر كمالاته ، بعد أن قر فى أفئدتهم وجوب وجوده ، وأقرت جوانحهم بحاجتهم الشديدة اليه ، ولا شك أن ذلك النقل الأمين ، هو القرآن الكريم ، والسنة النبوية الصحيحة المطهرة .

وبالتالى فان المنهج الأخلاقى فى القرآن الكريم والسنة المطهرة ، أن أخذ به لتقرير علم الكلام وتأكيده ، وتقرير العقيدة الايمانية وتثبيتها فى النفوس ، منطلقا

من النقل مستأنسا بالعقل ، نجح فى أداء دوره ، وظفر بمراده ، ما فى ذلك ريب .

وقد أمعن " عما نويل كانت " فى فهمه لليوم الآخر ، وقرر أن الواجب الخلقى يوجب وجود خالق متمتع بكل صفات الكمال ، قادر على اثابة المطيع ومعاقبة العاصى وأمثل صورة لتحقيق ذلك ، لابد أن تكون يوم القيامة . (١)

ولقد كان المنهج الأخلاقى القرآنى من أبرز جهات التأثير فى المفكر الألمانى " كانت " وان لم يعلن " كانت " ذلك صراحة ، ولانعدم الدليل ، اذا ما قارنا بين منهج القرآن الأخلاقى لاثبات عقيدة التوحيد ، وبيان قيمة المنهج الكلامى ، وبين ما انتهى اليه " كانت " فى جانبه الأخلاقى .

فالقرآن الكريم أكد على حرية الارادة فى الانسان ، وأنه مسئول عن كل ما يصدر عنه " فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره " (٢) وأكد "كانت" على أن الأخلاق لا تقوم عنده الا على الارادة الحرة ، أو حرية الارادة ولم يتمكن " كانت " من اخفاء نزعته القرآنية (فى هذا الاتجاه) رغم أنه ليس مسلما حيث فوجئنا به يؤكد على الارادة الخيرة الحرة ، التى تندفع الى فعل الخير عن حب واقتناع ، وتميل اليه لا طلبا للمدح ، ولكن طمعا فى كسب رضى الرب الجليل رب العالمين .

وقد قاده المنهج الأخلاقى القرآنى ، سواء أعلن ذلك أو لم يعلنه — الى بناء

---

(١) راجع محاضرات فى الفلسفة الحديثة للدكتور رفقى زاهر ،
وكذلك " كانت " للدكتور / زكريا ابراهيم .
ومشكلة الألوهية للدكتور / محمد غلاب .
(٢) سورة الزلزلة الآيتان ٧ ، ٨ .

فكرة الواجب ـ على قاعدة الارادة الحرة الخيرة ، ثم الاشادة فوقها حيث شاد بناء الفلسفى فى خلود النفس ، ولولا تأثره بما أطلع عليه من فكر اسلامى ، لما تمكن من فهم النفس فضلا عن فهمه لخلودها ، ومن ثم ايمانه باليوم الآخر وتأكيده عليه .

ولو كانت دعائم " كانت " الثلاث مثار جدل طويل بين أنصاره وخصومه ، ولكنه على كل حال ، قد أستفاد من الكمال القرآنى فألف دولته الفكرية حسب ما فهمه من نصوصه الكريمة ، وكانت دعائمه الثلاث هى :

أ ـ الارادة الحرة الخيرة .

ب ـ وجود الله .

جـ ـ خلود النفس .

من بين ما تأكد لدينا أن كانت قد استفادها جميعا من النبع الاسلامى الذى ساد أوروبا ، وقد تسلل اليها ابان دولة الأندلس ـ الفردوس الاسلامى المفقود ، ونقل اليها على يد فلاسفة المغرب (كابن رشد ، وابن طفيل ، وابن ماجة) ، وصار أثرا من آثار المسلمين الخالدة ، والذى فتح عيون الغرب على جوهر دينه وكمال نصوصه ، فهل آن لنا أن نأخذ بمنهج القرآن الكريم ، لاثبات علم الكلام فى العصر الحديث ، حتى لايسبقنا اليه غيرنا ، ولاينازعنا فيه من ليس من ديننا ، ولو ترك له ربما غلبنا عليه ، أو فعل به ماشاء له هواه ؟ !

وفى القرآن الكريم ، صور عديمة لمناهج قوية ، يمكن من خلالها بناء عقيدة ايمانية قويمه ، وتقرير علم الكلام فى الاسلام ، كالمنهج الاجتماعى ، والذى تتحدث عنه آيات عدة ، بل ان العقل الجمعى الذى هتف له من الأعماق منشئوه ، قد

تحدث عنه المنهج القرآني كثيرا ، باعتباره صورة اجتماعية سلبية ، فقال تعالى :
" وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون " (١) .

وقوله صلى الله عليه وسلم " لا تكن إمعة تقول ان أحسن الناس أحسنت ، وان أساءوا أسأت ولكن قل ان احسن الناس أحسنت وان أساءوا فلا أظلم " .

والمنهج الداخلي ، والذي يعبر عنه بالحوار النفسي ، حيث يقف المرء مع ذاته ، يواجهها بكل ما فيها من ثبت وشهامة ، أو جبن وخوار ، وبكل ما تحمل من ظنون خيرة ، أو نوايا عدوانية ، ولعل هذا ما أشار اليه الحديث الشريف في قوله صلى الله عليه وسلم : " البر ما اطمأنت اليه النفس ، والاثم ما حاك في الصدر وكرهت أن يطلع عليه الناس " .

والمنهج الوجداني : القائم على معاني التلهف ولوعة الشوق ، وجمرة الانفعال أو غمرة الأفراح ، والذي يحلق بصاحبه أبعد من سماء الخيال ويطوف به في أرجاء الوجود والعدم ، ويحلق معه أينما يذهب ، ويحمل اليه البشريات السارة ، أو الذكريات الآلية ، وكل ذلك بقدر واحد ، وميزان لا يعرف الاختلاف ولعل هذا المنهج هو ما أشار اليه القرآن الكريم في قوله تعالى :
" وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب ، قالت ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا ان هذا لشيء عجيب ، قالوا أتعجبين من أمر الله ، رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد " (٢) ، وكثير من الأمثال لتلك المناهج يمكن الاسترشاد بالقرآن الكريم فيها ، واستخدامها لتخاطب أهل العصر الحديث ، وحتما سوف يكتب لعلم الكلام النجاح ان هو تمسك بالمنهج القرآني .

---

(١) سورة
(٢) سورة هود الآيات ٧١ ــ ٧٣

سابعا : منهج بحث العلائق :

وهو منهج يقوم على بحث العلائق الكائنة بين المخلوقات العاقلة وغيرها بصورة ايجابية مرة ، وسلبية أخرى ، كما يجب أن يبحث بصورة واقعية العلائق الماثلة بين العاقلين أنفسهم ، من ناحية التكاليف الالهية ، وقدرتهم على تلقيها والقيام عليها ، ايجابا مرة وسلبا كذلك .

وفي تقديري أن هذا المنهج سوف يفتح بابا واسعا لتقديم أفضل دراسة لعلم الكلام في العصر الحديث ، متى استرشد بالذكر الحكيم ، فمثلا قوله تعالى : " ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون " (١)

توضح الآية العلاقة بين الآلة في كل من : القلب ، والعين ، والأذن ، وسوء استخدامها ، حتى كأنها غير موجودة رغم التأكيد على وجودها ، وصلاحيتها للاستقبال ، الا أن هناك علاقة بينها وبين الضلال ، تصرفها عن قبول الحق ، وتدفعها الى الالتحام بالباطل ، كأنها خلقت له ، وانفرد بها .

وقوله تعالى :

" ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين ، ألهم أرجل يمشون بها ، أم لهم أيد يبطشون بها ، أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها ، قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون " (٢) .

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٧٩
(٢) سورة الأعراف الآيتان ١٩٤ ، ١٩٥

رغم أن فى الآية رفضا للشريك ، ونعيا عليهم بالضلال ، ألا أنها رمت الى بحث العلاقة بين امكانية المعبود من دون الله ، وامكانية المكلف الذى رفض الاستجابة لنداء قلبه الحى ، وضميره المعبأ بالنور الالهى ، وانهما فى ناحية السلب سواء ، لدرجة تجعل منها صورة لعلاقة تبادلية ، مفادها عبادة العاجز للأشد عجزا ، والناقص للأكثر نقصا ، والضعيف للأعظم ضعفا ، وهذا فى حد ذاته ، دليل على حاجة الانسان العاقل لعلم كلام حديث ينقله من حظور عبادة المخلوق الى الاتجاه لعبادة الخالق ، ولا يكون ذلك ، الا بالبحث عن طبيعة تلك العلائق ، ومنهج القرآن الكريم فى توجيهها وامكانية الاستفادة منه لهو أقوم طريق .

ولا تختلف الفلسفة الاسلامية فى هذا كثيرا عن علم الكلام الاسلامى ، وذلك ما سنبذل الجهد لبيانه فى الجزء الثانى ، ومازلت أردد قوله تعالى :

" ان ولى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين " (١)

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٩٦ .

وبعـــد

عزيـــزى القـارئ :

هـا أنت قـد طفـت معنـا فـى تعاريـف الفلســفة الاسـلاميـة وعلـم الكـلام الاسـلامى ، ولعلك قـد تابعـت الرحـلة بشـغـف أو تبـرم ، ولعلنـا بذلنـا فيها مجهـودا لتهنـأ أنت ، فماذا تزمـع تسجيله مـن خـواطـر وأفكـار ، وما تراه من أوجـه ضـعف ، أو اكتمـال ، ولعلك توافـق على اسـتمرار الرحلة معنـا فى الجـزء الثانـى ، ونحـن معـك على الرحـب والسـعة ، والله خيـر حافـظا وهـو أرحـم الراحميـن .

المؤلف

محمد حسينى موسى الغزالى